لقاءات رمضان 1434هـ

الجزء الأول

أ.أناهيد السميري

بسم الله الرحمن الرحيم

أخواتنا الفاضلات، إليكن سلسلة تفاريغ من دروس أستاذتنا الفاضلة أناهيد السميري حفظها الله، وفّق الله بعض الأخوات لتفريغها، ونسأل الله أن ينفع بها، وهي تنزل في مدونة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ)

https://anaheedblogger.blogspot.com/

تنبيهات هامة:

– منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.

– هذه التّفاريغ من اجتهاد الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.

– الكمال لله –عزَّ وجلَّ–، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم فيه من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

اللقاء الأول

تفسير الآيات 124، 125 من سورة البقرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

إنّ من أعظم النعم على العبد أن يُمدّ له في العمر ويُوفّق لعمل صالح، فما أعظمها من نعمة تستحقّ الشكر {وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا}[1].

ومن أجلّ نعم الله-عزَّ وجلَّ-وأفضل مننه وأكرم عطاياه **نعمة الإيمان**، فهي النعمة العظمى والمنة الكبرى من الله-عزَّ وجلَّ-المنان على من يشاء من عباده وهو الرحمن {وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ}[2].

وبالإيمان: تُنال سعادة الدنيا والآخرة، ويُنال الاطمئنان والراحة وقرار القلب وسكون النفس، وسعادة الإنسان. وقد وعد بذلك الرب-سبحانه وتعالى-: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً}[3] وُعد بأن يحييه الله-عزَّ وجلَّ-حياة طيّبة. **وهذا في الدنيا**.

أما **في الآخرة** فهناك:

- الحياة الحقيقية.
- والنعم العظيمة.
- والعطايا الجسيمة.
- والآلاء الكثيرة.
- والنجاة من النيران.

وثمار الإيمان عظيمة لا يمكن حصرها في كلمات مختصرة، لكن نعود فنقول: **الإيمان أجلّ العطايا وأعظمها**، قال تعالى: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن

(1) [سورة إبراهيم: 34]
(2) [سورة الحجرات: 7]
(3) [سورة النحل: 97]

جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}[1] ولهذا كان من الواجب أن:

- نذكّر بعضنا بعضًا بهذه النعمة.
- ونشكرها.
- ونطلب من الله المزيد.
- ونفتح لأنفسنا الأبواب والطرق التي مَنّ الله بها علينا لزيادة الإيمان.

وآية الشورى {وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء} بيّنت أمرًا عظيمًا، أنّ بالكتاب والسنَّة وعلى ضوئهما يتعلّم المؤمن الإيمان، {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ} **فإذا تعلّمنا الكتاب تعلّمنا الإيمان**.

ونحن في حاجة شديدة إلى دراسة الإيمان وتلقّي شؤونه من القرآن على ضوء ما جاء في أحاديث النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-وأركان الإيمان العظيمة وأسسه المتينة جاءت في حديث النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-وعدّها ستًّا في حديث جبريل المشهور: ((أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ))[2]، فهذه ستة أصول عظيمة يبني الإنسان حياته عليها وأعظم ركن من أركان الإيمان **الإيمان بالله**، وإذا تحدّثنا في أيّ ركن غير الإيمان بالله فإننا نعود إلى ركن الإيمان بالله، وهذا يجعلنا نعلم أن: دراستنا لهذه الأركان إنما هي زيادة طلب لمعرفة الرحمن.

فإذا **عرفنا رسل الله وكتب الله وملائكة الله ولقاء الله والقدر الذي قدّره الله فإننا نزداد معرفة بالله**.

فهذا فضل عظيم مِن الله، أن عرّفنا بنفسه بطرق شتّى، وكلّ هذا مجموع في القرآن وفي سنَّة نبينا-صلَّى الله عليه وسلَّم-: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا} فبهداية القرآن نهتدي، وبالإيمان وأنواعه نعتري.

(1) [سورة الشورى: 52]

(2) أخرجه مسلم (8)، وأبو داود (4695) واللفظ له، والترمذي (2610)، والنسائي (4990)، وابن ماجه (63)، وأحمد (367).

وهذا هو أول لقاءات الشهر المبارك رمضان 1434هـ-أسأل الله-عزَّ وجلَّ-أن يمنّ علينا بإتمام صيامه وقيامه وأن نكون ممن آمن حق الإيمان فانتفع بالفرص التي هيأها الرحمن لخلقه.

وهذا اللقاء نودّ أن نناقش فيه **قصة إبراهيم-عليه السلام-**؛ إيمانًا منّا بأنه **خليل الرحمن**، إيمانًا منا بأن تصديقه والثناء عليه **قربة إلى الله** كما نفعل في التحيات، فإننا نبتهل إلى الله أن يصلي على نبينا محمد كما صلى على إبراهيم. فمن هو إبراهيم-عليه السلام-عند الله؟ وما حاله؟ إذا عرفنا مواقفه من خلال القرآن وما أخبرنا به الله-عزَّ وجلَّ-عنه سيكون هذا **مما يزيد الإيمان** بهذا الرسول، والأهم أنه **يزيد الإيمان بربّنا** الذي شرع هذا الشرع وقدّر هذه الأقدار، سنعرفه ونعرف **كيف يعامل أولياءه**.

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (124) وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (125) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (126) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (127) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (128) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (129)}[1]

جاءت هذه الآيات-التي اخترناها للدراسة في سورة البقرة-**في سياق وصف حال اليهود والنصارى** وإخبار الله-عزَّ وجلَّ-لنا بأن اليهود والنصارى يجتمعون في أنهم لا يرضون عن النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-وعن ملّته وعن أتباعه حتى يتّبع أتباعه ملّتهم، وهم يدّعون نسبتهم إلى إبراهيم-عليه السلام-، فبيّن الله-سبحانه وتعالى-الحقّ، وأخبر عن حال من أحوال إبراهيم وأنّ ملّته الحنيفية، فهذا إبراهيم وهذا حاله، وهذا محمد-صلَّى الله عليه وسلَّم-وهذا حاله.

ستكون طريقتنا دراسة الآيات من خلال تفسير مجمل ونختار تفسير الشيخ السعدي لذلك.

(1) [سورة البقرة 124-129]

قراءة تفسير الآيات من تفسير السعدي والتعليق عليها:

قال تعالى: {وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}.

قال الشيخ السعدي-رحمه الله-: **"يخبر تعالى عن عبده وخليله إبراهيم-عليه السلام-المتّفق على إمامته وجلالته، الذي كل من طوائف أهل الكتاب تدعيه"** أي تدعي النسبة إليه فينسبون أعمالهم وأحوالهم إلى إبراهيم-عليه السلام-، فكل من طوائف أهل الكتاب تدعيه بل **"وكذلك المشركون"** يعني أهل الكتاب يدعون النسبة إليه، وكذلك المشركون يدعون النسبة إليه يخبرنا تعالى عن أي حال؟ قال: **"أن الله ابتلاه وامتحنه بكلمات"**.

الذي ابتلاه هو الله، إذًا **من أفعال الله (الابتلاء)**.

قال: "أن الله ابتلاه وامتحنه بكلمات" فما هي هذه الكلمات؟

قال: "أي: بأوامر ونواهي" إبراهيم-عليه السلام-ابتلاه الله بكلمات، والكلمات هي الأوامر والنواهي، كما هي عادة الله في ابتلائه لعباده والحكمة من الابتلاء: **"يتبيّن الكاذب الذي لا يثبت عند الابتلاء والامتحان من الصادق، الذي:**

- **ترتفع درجته.**
- **ويزيد قدره.**
- **ويزكو عمله.**
- **ويخلص ذهبه.**

وكان من أجلِّهم في هذا المقام، الخليل-عليه السلام-".

نرى الفوائد التي سنخرج بها من هذه الجملة:

الله-عزَّ وجلَّ-يخبرنا عن حال من الأحوال: {وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ} فالله الرب العظيم ابتلى إبراهيم، و(إذ) حين تأتي في القرآن ويأتي بعدها خبر غالبًا يكون معناها: "واذكر هذه الحال"، حال ابتلاء الرب العظيم إبراهيم بكلمات، أي بأوامر، ومن المؤكد أن **اسم (الرب) هنا له أثر عظيم** على فهمنا، فإنه الرب الذي يربي عباده ويحوّلهم من حال النقص إلى حال التمام، فابتلاؤه لإبراهيم-عليه السلام-هي سنَّته وعادته في خلقه، **فقال الشيخ**: "كما هي عادة الله في ابتلائه لعباده".

ولكن ما الحكمة من الأوامر والنواهي وهو-سبحانه وتعالى-غني عن خلقه؟

- ليتبين الكاذب الذي لا يثبت عند الابتلاء والامتحان.
- ولتعرف نفسك أيها المدعي فلا تدّع المحبة والصدق والإخلاص، ولا تدّع الحب لله وللجنة ولحسن اللقاء، ولا ترجو هذه الشؤون وأنت في الاختبار حالك حال لا تسُرّ!

قال: **"فيتبين الكاذب الذي لا يثبت عند الابتلاء والامتحان من الصادق"** الصادق ماذا ستكون حاله؟ **"ترتفع درجته بصدقه ويزيد قدره ويزكو عمله"** كل هذا بسبب نجاحه في الاختبار.

"ويخلص ذهبه" فهو صاحب قلب من ذهب ولكن قد يأتي عليه من الوسخ ما يحتاج إلى نار لتخلصه، **فتأتي البلاءات تخلص هذا الذهب.**

قال:

"وكان من أَجَلهم في هذا المقام الخليل–عليه السلام–" أي من أَجَل من ابتلي الخليل–عليه السلام– **"فأتم ما ابتلاه الله به، وأكمله ووفاه"** هذا فعل إبراهيم–عليه السلام–الذي هو قدوتنا وهو خليل الرحمن. فماذا فعل الله له لما أتم؟

قال:

"فشكر الله له ذلك ولم يزل الله شكورًا" نحن على يقين أنه هو الشكور الغفور، ما يتقرب منه متقرّب يريد صدقًا وجه ربّه فيحسن إلى نفسه بامتثال أمره إلا كان الله شكورًا، فشكر له عمله فقال–وهذا شكره له بعد حسن عمل–: {إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا} فانظر إلى هذا الفعل من أفعال الله وكيف هو الذي يقدم بعضًا من خلقه **الصادقين** على مرّ الأزمنة فيجعلهم أئمة ويُبقي آثارهم إلى يوم الدين.
{إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا} وهذه الإمامة العظيمة هي **المنة** التي لا يستطيعها الخلق إنما هي **عطية من الرب**، فلا **المناصب** ولا **الدرجات العلمية** تجعل العبد صاحب إمامة، إنما يرفع الله من يشاء من عباده {إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا} " أي:

- **يقتدون بك في الهدى.**
- **ويمشون خلفك إلى سعادتهم الأبدية.**
- **ويحصل لك الثناء الدائم، والأجر الجزيل، والتعظيم من كل أحد"**

فإذًا هذا القدوة سيدل الناس على الهدى ويمشي الناس خلفه ويحصل له الثناء والتعظيم من كل أحد، وهذا مشاهد معلوم أن لإبراهيم–عليه السلام–الثناء من كل أحد، والله هو الذي جعل له **لسان صدق** في العالمين، فسبحان من يطيب آثار عباده الصالحين! فاللهم طيّبنا وطيّب آثارنا واجعلنا من المؤمنين.

وهنا علينا أن نراجع أنفسنا في معرفتنا بإبراهيم–عليه السلام–الذي هو قدوة في الخير، ورفعه الله، علينا أن نعتني بمن هذا شأنه عند الله.

قال الشيخ السعدي–رحمه الله–:

"وهذه–لعمر الله–أفضل درجة تنافس فيها المتنافسون، وأعلى مقام شمر إليه العاملون، وأكمل حالة حصّلها أولو العزم من المرسلين وأتباعهم، من كل صديق متبع لهم، داع إلى الله وإلى سبيله".

ما هي أفضل درجة؟ أن تكون إمامًا للناس يقتدون بك.

ولماذا هي درجة عظيمة؟ السبب أن أجورهم جميعًا في ميزانك، **ليس مطمعًا في ثنائهم، إنما الطمع في ثناء الله**، فإذا كثر–مع صدقك–من يتبعونك على الهدى والصلاح **وأنت أعظم ما عندك أن تنشر بينهم الهدى ولا يهمك الأتباع**، فهذه أفضل درجة تنافس فيها المتنافسون لأن الميزان يُثقَّل بعمل العبد وبعمل من دلّهم على العمل!

فاللهم ثقّل موازيننا، واقبل أعمالنا، واجعلنا هداة مهتدين إلى الطريق المستقيم.

قال:

"فلما اغتبط إبراهيم بهذا المقام، وأدرك هذا، طلب ذلك لذريته، لتعلو درجته ودرجة ذريته، وهذا أيضًا من إمامته، ونصحه لعباد الله، ومحبته أن يكثر فيهم المرشدون، فلله عظمة هذه الهمم العالية، والمقامات السامية".

قال الله له: {إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا} لما اغتبط بهذا المقام وأدركه قال: {وَمِن ذُرِّيَّتِي} طلب ذلك لذريته لتعلو درجته ودرجة ذريته، وهذا أيضًا من إمامته ونصحه لعباد الله، فهو لم يختص بشأن الإمامة

لنفسه، إنما أحب أن يتكثّر الأئمة الصالحين، ويحب انتشار الرشد والمرشدين، ولا يجد في نفسه غصة فيريد أن يكون هو المميز عن بقية الخلق، بل من حبه للهداية أحب لذريته أن تكون ممن استرشدوا وأرشدوا، فماذا كان جواب الله له؟ قال الله-عزَّ وجلَّ-: {لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}.

قال:

"فأجابه الرحيم اللطيف، وأخبر بالمانع من نيل هذا المقام فقال: {لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ} أي: لا ينال الإمامة في الدين، من ظلم نفسه وضرها، وحط قدرها، لمنافاة الظلم لهذا المقام، فإنه مقام آلته الصبر واليقين، ونتيجته أن يكون صاحبه على جانب عظيم من الإيمان والأعمال الصالحة، والأخلاق الجميلة، والشمائل السديدة، والمحبة التامة، والخشية والإنابة، فأين الظلم وهذا المقام؟"

أي لا ينال الإمامة في الدين من ظلم نفسه وضرها وحطّ قدرها، بماذا حط قدرها؟ بالذنوب والمعاصي، ظلم نفسه بالذنوب والمعاصي، أو تكون المصيبة العظيمة أن يكون قد وقع في الشرك الظلم العظيم.

لماذا لا يكون إماما في الدين من ظلم نفسه؟ لمنافاة الظلم لهذا المقام.

ماذا يحتاج مقام الإمامة؟ **قال الشيخ-رحمه الله-:**

"فإنه مقام آلته الصبر واليقين" لا تنال إمامة الدين إلا بالصبر واليقين، والظلم للنفس بالمعاصي إنما يتخلى صاحبها وقت ظلمه لنفسه عن الصبر وعن اليقين، فإن العاصي عندما يترك نفسه تفعل ما تشتهي فإن هذا دليل على:

- ضعف يقينه لِما يلقى عند ربه.
- وضعف صبره عن حبس نفسه عن رغائبها.

وهذا المقام مقام **آلته الصبر واليقين** ونتيجته **أن يكون صاحبه على جانب عظيم من الإيمان والأعمال الصالحة**؛ لأنه متيقن بلقاء الله طالب لرضاه، فيحبس نفسه على طاعة الله، وهذا لا يكدّر عليه أن الإنسان لا بدّ أن يقع في الخطأ والذنوب وما منّا من معصوم، لكن لنا رب غفور رحيم نطمع في مغفرته ونرجو في هذه الأيام والليالي أن نكون ممن أعتقه من النار.

قال:

"هذا مقام آلته الصبر واليقين، ونتيجته أن يكون صاحبه على جانب عظيم من الإيمان والأعمال الصالحة والأخلاق الجميلة والشمائل السديدة والمحبة التامة للرب والخشية والإنابة، فأين الظلم وهذا المقام؟!" إن من كان إمامًا في الدين كان محبًّا لربّ العالمين، شديد الخشية والخوف منه، وإذا أخطأ كان من المنيبين كثير العود والرجوع للرب العظيم.

قال:

"ودل مفهوم الآية، أن غير الظالم، سينال الإمامة، ولكن مع إتيانه بأسبابها" فنسأل الله مغفرة الذنوب وإزالة العيوب والعوائق عن هذا الطريق المستقيم.

قال:

"ثم ذكر تعالى نموذجًا باقيًا دالًا على إمامة إبراهيم، وهو هذا البيت الحرام الذي جعل قصده، ركنا من أركان الإسلام، حاطًا للذنوب والآثام).

أي أن الله-عزَّ وجلَّ-أخبره أنه جعله إمامًا للناس، وهذا الخبر أتى بعده مباشرة ما يدل عليه، نموذجًا باقيًا دالًا على إمامة إبراهيم:

{وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ} المقصود به البيت الحرام، سنفهم من خلال التفسير ما معنى (مثابة).

الله-عزَّ وجلَّ-هذا فعله، وهذا فعل عظيم لو تأمّلته رأيت أمرًا عظيمًا {وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا} فهو مثابة وأمن، ويأتينا الأمر {وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ}-الذي نحن في صدد النقاش عن مكانته-{مُصَلًّى}.

كما جعلنا البيت مثابة {وَعَهِدْنَا} وهذا فعل من أفعال الله {وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ} وهذه المفترض أن تكون أحوال الخلق في بيت الله نرى هذه الآية العظيمة ودلالتها من خلال كلام المفسر، **قال-رحمه الله-:**

"ثم ذكر تعالى نموذجًا باقيًا دالًا على إمامة إبراهيم، وهو هذا البيت الحرم الذي جعل قصده ركنًا من أركان الإسلام، حاطا للذنوب والآثام".

إذًا هذا البيت العظيم من مكانته أن جعل قصده والحج إليه ركنًا من أركان الإسلام لا يقوم الإسلام إلا به، ويسقط هذا عن من لا يستطيع، لكن الإسلام لا يقوم إلا بقصد هذا البيت، وهذا البيت العظيم قصده حط للذنوب والآثام، وهذا البيت فيه من آثار الخليل وذريته ما عُرفت به إمامته، وتُذُكرت به حالته.

"وفيه من آثار الخليل وذريته، ما عرف به إمامته، وتذكرت به حالته فقال: {وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ} أي: مرجعًا يثوبون إليه، لحصول منافعهم الدينية والدنيوية، يتردّدون إليه، ولا يقضون منه وطرًا، وجعله {أَمْنًا} يأمن به كل أحد، حتى الوحش، وحتى الجمادات كالأشجار".

والآن سيتضح معنى (يثوبون) أكثر، قال: يترددون إليه ولا يقضون منه وطرًا.

يثوبون: أي يرجعون، يثوبون إليه: يترددون تردد **المشتاق**، ولا يجدون في أنفسهم أنهم شبعوا منه، بل قلوبهم ممتلئة شوقًا إليه، وهذا شأن عجيب لهذا البيت لا يعرفه إلا من ذاقه! فإنك تظن أن بقاءك فيه ساعات سيجعلك لا تشتاق إليه مرة أخرى، فتجد نفسك ما أن تتركه إلا وقد امتلأ فؤادك شوقًا للعود إليه!!

فما أعظم حال الخلق مع هذا البيت! فتراهم لا يقضون منه وطرًا ولا يجدون في أنفسهم إلا دافعًا يدفعهم لهذا البيت العظيم ولزيارته، وقد تكون هناك من المصاعب والأحوال التي معها لا يستطيعون أن يتمتعوا كل التمتع، وتجدهم يجدون الحرج في سفرهم لكنهم يثوبون إليه من البلدان كلها ويأتونه.

ولذلك يقول الشاعر:

جعل البيت مثابًا لهم ليس منه الدهر يقضون الوطر

أي: لو بقوا الدهر فيه لا يقضون وطرهم منه، أي لا يشبعون منه، وإنك ترى الرجل يبقى في هذا البيت الساعات الطوال يشتغل بالذكر والتسبيح وأحيانًا بالصمت وعدم الفعل، لكنه يشعر أنه يثقل عليه الخروج منه! ولو عاش فيه ما عاش فإن الخروج من هذا البيت والرحلة عنه تكون غاية في الصعوبة، وهذا

من عجيب فعل الله في هذا المكان العجيب، في هذا المكان الذي أراده الله مثابة للناس يتحصل للناس في هذا البيت المنافع الدينية والدنيوية، يتردّدون إليه ولا يقضون منه وطرًا.

وجعله أيضًا آمنًا يأمن فيه كل أحد حتى الوحش وحتى الجمادات والأشجار، وهذا أمر معروف في الشرع أنه يحرم على زائر هذا البيت أن يؤذي شيئًا من الطير ولا شيئًا من الشجر، وحينما تفكر في هذا الأمر تعلم أن تعظيم البيت استقر حتى في أهل الجاهلية، ويسّر الله لأهل الجاهلية أن يعظّموا البيت، والأمن دام في العصور والأجيال من عهد إبراهيم-عليه السلام-في هذا البيت العظيم.

وما تفكّر فيه دائمًا هو أنّ الله-عزَّ وجلَّ-بمنه وكرمه شرع للخلق شرائع وجعل لهم أماكن يجتمعون فيها تسدّ لهم حاجاتهم وتحقّق لهم أغراضهم، فسبحان من شرع، وسبحان من أودع في القلوب هذه المشاعر.

قال:

"ولهذا كانوا في الجاهلية-على شركهم-يحترمونه أشد الاحترام، ويجد أحدهم قاتل أبيه في الحرم، فلا يهيجه، فلما جاء الإسلام، زاده حرمةً وتعظيمًا، وتشريفًا وتكريمًا".

واتخذ الخلق هذا البيت مكانًا يثوبون إليه، وأيضًا اتخذوه مكانًا ينتفعون منه في دنياهم ولا بأس عليهم في ذلك، فإن منافع الدنيا إذا لم تعارض منافع الآخرة فهي خير وتزيد من الانتفاع بهذا البيت.

يقول-عزَّ وجلَّ-: {وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى} **قال الشيخ:**

"يحتمل أن يكون المراد بذلك، المقام المعروف الذي قد جعل الآن، مقابل باب الكعبة، وأن المراد بهذا، ركعتا الطواف، يستحب أن تكونا خلف مقام إبراهيم، وعليه جمهور المفسرين" يعني أمر الله لنا أن نتخذ من مقام إبراهيم مصلى ركعتي الطواف، ويستحب أن تكون خلف مقام إبراهيم ويبقى ذكرى إبراهيم في بناء الكعبة وحتى بعد انتهائك من الطواف تذكّر بأنك تصلي خلف مقامه فترتبط به في هذه الشعيرة، وفي هذا **قال الشيخ: "وعليه جمهور المفسرين، ويحتمل أن يكون المقام مضافًا، أي مقام مفرد، فإذا أتى مفرد مضاف دل على العموم"** بمعنى كلمة (مقام) مفردة فإذا أتى مفرد مضاف إلى إبراهيم فإذا أتى مفرد مضاف دل على العموم.

قال:

"فيعم جميع مقامات إبراهيم في الحج" إذًا واتخذوا من مقامات إبراهيم كلها التي في الحج مصلى لكم **لذكر الله.**

قال:

"وهي المشاعر كلها: من الطواف، والسعي، والوقوف بعرفة، ومزدلفة ورمي الجمار والنحر، وغير ذلك من أفعال الحج، فيكون معنى قوله: {مُصَلًّى} أي: معبدًا، أي: اقتدوا به في شعائر الحج، ولعل هذا المعنى أولى".

رجّح القول الثاني **"لدخول المعنى الأول فيه، واحتمال اللفظ له"** اختيار الشيخ أن مقام إبراهيم جميع مقامات الحج.

يبقى الجزء الثالث من الآية: {وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ}

قال الشيخ:

"أي: أوحينا إليهما" أعلمنا بمعنى أوحينا **"وأمرناهما بتطهير بيت الله من الشرك، والكفر والمعاصي، ومن الرجس والنجاسات والأقذار"** وهذا أمر عظيم علينا أن نعتني به، أن نطهّر بيت الله من نوعي الأذى:

1. الأذى في العقيدة.
2. الأذى في السلوك.

نسأل الله أن يصرف عن هذا البيت وعن بلاد المسلمين أهل الشرك الذين يرفعون أصواتهم بنداء غير الله عند بيت الله، وهذا أكثر ما يزعجنا عندما نكون طائفين، ذاكرين في البيت الحرام، لكن نسأل الله بمنّه وكرمه وهو القادر على إزالة الشرك وأهله أن يزيل آثار هؤلاء من بلادنا ومن بلاد المسلمين، فلا يبقى إلا التوحيد له في الأرض ويبقى الدعاء له في بيته خاصة.

قال:

"ليكون {لِلطَّائِفِينَ} فيه {وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ} أي: المصلين، قدّم الطواف لاختصاصه بالمسجد الحرام ثم الاعتكاف؛ لأن من شرطه المسجد مطلقًا، ثم الصلاة، مع أنها أفضل، لهذا المعنى" الطواف خاص بهذا البيت والعكوف خاص بالمسجد، والركع السجود به وبغيره.

قال:

"وأضاف الباري البيت إليه لفوائد، منها: أن ذلك يقتضي شدة اهتمام إبراهيم وإسماعيل بتطهيره، لكونه بيت الله، فيبذلان جهدهما، ويستفرغان وسعهما في ذلك".

وهذا حق، فإنك عندما تسمع أن هذا بيت الله فيكون عندك بذل للجهد في تطهير هذا البيت، فلا تقم بما يؤذي وتحاول أن تمنع وتطهر البيت من أي أذية، ولا يغرك اليوم أن البيت قد اعتُني به غاية العناية والحمد لله نسأل الله أن يديم فضله علينا بهذه العناية ويجعلها في موازين ولي أمرنا، لكن لا يغرك أن هناك من يعتني، فأنت لابد أن تظهر لربك حرصك وحبك بأن تعتني بتطهير بيته، سواء كان هذا من القاذورات المعنوية أو الحسية، فلا ترفع صوتك، وتنهى من يرفع صوته، فلا تؤذِ، وتنهى من يؤذي. وللأذية في البيت صور كثيرة. أسأل الله أن يرشد جاهلنا ويوقظ غافلنا-اللهم آمين-.

قال:

"ومنها: أن الإضافة تقتضي التشريف والإكرام، ففي ضمنها أمر عباده بتعظيمه وتكريمه".

فأضاف البيت إلى نفسه لأن الإضافة تقتضي التشريف والإكرام، فمن ضمنه أمر لتعظيمه وتكريمه، أي أن هذا بيت الله تقرب إلى الله بتعظيم بيته، تشتاق لبيته، وتحب أن تكون ممن تمتع بقضاء وقته في بيت الله متقربًا إلى الله، لكن يعيب علينا أن كثيرًا منّا ينسى أن هذا البيت بيت الله، ينسى أن إضافة هذا البيت إلى الله يجعله عظيمًا في نفس المؤمن، فلا يكون من المؤمن إلا العناية به والرعاية له، وهذا يكون بألا تقضي ساعاتك في هذا البيت إلا بعبادة وطاعة.

وإن أعجب ما نرى من مخالفة اليوم أن تُقضى الساعات في البيت العظيم، في بيت الله قضاء لا يقضيه الإنسان في بيت من يُكرم، فإنك ترى ظاهرة مثل ظاهرة التصوير في البيت الحرام تشين وتؤلم! لأن فيها

من التعدّي على حرمات الخلق، وفيها من مظاهر الرياء ما فيها، والعجب أن يرفع يديه بصورة الداعي من أجل أن يُصوَّر بأنه يدعو الله عند الكعبة! يكون في هيئة الساجد ويطلب من أهله أن يصوروه! أو يتحوّل الأمر كأنه في مكان سياحي وتجتمع العائلة وتقف وتتصور وخلفيتها الكعبة المشرفة!

هذا كله لا يليق، نعظ خاصتنا ونرجو من الله أن يكشف الغمة عن عامتنا، غير ما تراه من استعمال هذه الأجهزة في هذا المكان العظيم، فما أن يدخلوا إلى أن يخرجوا وأبصارهم على شاشاتهم وأيديهم تكتب وتستقبل، والأعظم من هذا من ظهرت عليه آثار الاستقامة تراه مشتغلا بقراءة كتاب الله ثم تأتي نفسه الأمارة فتأمره أن يفتح جواله، فيقرأ، فيبتسم، فيرسل، ويقرأ آيتين، ثم يكمل مراسلة! فما أعظم الخطب، ما أعظم ما نحن فيه من عدم التعظيم!!

نستحي من الله أن يكون هذا حالنا في بيته، وإنا والله رأينا–والله أعلم–أنه كلما زاد تيسير الوصول وزادت الأماكن سعة وراحة وبرودة زاد في نفوس الناس انحرافًا عن المقصود في معاملة هذا البيت، كنا نتأمّل أن زيادة المساحات، ووجود الهواء البارد تكون سببًا لصلاة خاشعة، لكنها اغتنمت في خلاف ذلك والله المستعان.

على كل حال حق هذا البيت عظيم، وهذا البيت العظيم يذكرنا دائمًا بإبراهيم–عليه السلام–إمام الموحدين.

فاللهم اجعلنا على طريقه وطريق نبيك محمد–صلَّى الله عليه وسلَّم–وارحم ضعفنا واجبر كسرنا، واملأ قلوبنا إيمانا بك وبأنبيائك وبكتبك.

وإن شاء الله يكون لنا موقف آخر مع إبراهيم –عليه السلام –متى تيسر ذلك في الآيات التي نختارها.

من فضل الله تم لنا اللقاء الأول من لقاءات رمضان عام 1434 نسأل الله–عزَّ وجلَّ–أن يمدّ في أعمارنا ويمتّعنا بالصيام والقيام وعلى فهم كتابه–سبحانه وتعالى–.

اللقاء الثاني

تفسير الآيات 163، 164 من سورة البقرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذا هو لقاؤنا الثاني من لقاءات شهر رمضان المبارك لعام 1434، ولا زلنا بمنّة من الله وفضل منه نتدارس كتاب الله العظيم الذي هو **مصدر الإيمان**، والإيمان **أفضل الأعمال**.

ورد في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ-رضي الله عنه-أَنَّ رَسُولَ اللهِ-صلَّى الله عليه وسلَّم-سُئِلَ: أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ: ((إِيمَانٌ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ))[1]. وورد في حديث أبي ذرّ قال: سألت النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-أيّ العمل أفضل؟ قال: ((إيمان بالله))[2]. وفي حديث عبد الله بن مسعود قال: سألت النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-أي العمل أحب إلى الله؟ قال: ((الصلاة على وقتها))[3].

والصلاة إنما هي **عنوان الإيمان**، قال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ}[4] معنى ذلك أن الإيمان بالله تعالى: أفضل الأعمال، وأعلى الشعب التي يتقرب بها العبد لله-عزَّ وجلَّ-.

- لأنه أصل الأعمال، فلا تصح إلا به.
- ولأنه **أول واجب** على المكلف، فلا تقبل منه سائر الأعمال من عمل القلب أو اللسان أو الجوارح إلا بتحقيق الإيمان.

فالإيمان **تكاثرت النصوص** على عظم منزلته في الدِّين؛ لأنه السياج الحصين الذي يحمي الدِّين، فإذا عرفنا هذا، كان من الواجب علينا **العناية الشديدة بتعلّم الإيمان من القرآن**.

(1) أخرجه البخاري (1519)، ومسلم (83).
(2) أخرجه البخاري (2518).
(3) أخرجه البخاري (5970).
(4) [سورة المؤمنون: 1-2]

وفي سبيل تحقيق هذه الغاية، ومن أجل الوصول إلى هذا الهدف؛ نجتمع أسأل الله-عزَّ وجلَّ-أن يبارك لنافي اجتماعاتنا ونتدارس كتاب الله، أسأل الله-عزَّ وجلَّ-أن يجعله مجلسًا تحيط به الملائكة رغم البعد، ونختار من الآيات ما يعيننا على الإيمان.

فاخترنا للقائنا اليوم قوله تعالى: {وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} وهذه الآيات من سورة البقرة، قال تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (163) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (164) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (165) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (166) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (167)}[1].

نتدارسها سويًّا إن شاء الله من خلال كلام الشيخ السعدي في تفسيره:

قراءة تفسير الآيات من تفسير السعدي والتعليق عليها:

قال:

"يخبر تعالى-وهو أصدق القائلين-أنه {إِلَهٌ وَاحِدٌ} أي: متوحِّد منفرد في:

- **ذاته**
- **وأسمائه**
- **وصفاته**

(1) [سورة البقرة: 163-167]

- **وأفعاله"** .

إلهكم الذي تؤلهونه وتعظمونه إله واحد أي متوحِّد ليس لكم إله غيره منفرد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله.

قال:

"فليس له شريك في ذاته، ولا سمي له ولا كفو له، ولا مثل، ولا نظير–في صفاته–**ولا خالق، ولا مدبر غيره"** –في أفعاله–.

فكان هو الإله المستحق لما له من صفات كمال.

قال:

"فإذا كان كذلك" أي كانت هذه صفات الله–عزَّ وجلَّ–**"فهو المستحق لأن يؤله"** محبة وتعظيمًا، **"ويُعبد"** طاعةً وخضوعًا بجميع أنواع العبادة.

وأيضًا **"هو المستحق أن لا يشرك به أحد من خلقه"** إذًا إلهكم إله واحد، إلهكم الذي يستحق المحبة والتعظيم إله واحد، وهو إلهكم ولا أحد يستحق غيره الألوهية، لا إله إلا هو، إلهكم إله واحد هو المقصود بالعبادة المستحق لها.

{لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} هذا بيان وتوكيد أنه لا يوجد إله غيره، هو الإله وحده الذي يستحق العبادة، وهذا الأمر هو **مبدأ مقصود العبادة ومنتهاه**، إلهكم إله واحد.

هو المستحق لأن:

- **يؤله.**
- **ويُعبد بجميع أنواع العبادة.**
- **ولا يُشرك به أحد من خلقه.**

قال:

لأنه {الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ}.

إذًا هو المستحق لأن يُؤله ويُعبد بجميع أنواع العبادة، ولا يُشرك به أحد من خلقه لأنه الرحمن الرحيم.

"المتصف بالرحمة العظيمة التي لا يُماثلها رحمة أحد فقد:

- **وسعت كل شيء.**
- **وعمّت كل حي.**

فبرحمته وجدت المخلوقات.

قال:

"وبرحمته حصلت لها أنواع الكمالات، وبرحمته اندفع عنها كل نقمة، وبرحمته عرّف عباده نفسه بصفاته وآلائه، وبيَّن لهم كل ما يحتاجون إليه من مصالح دينهم ودنياهم، بإرسال الرسل، وإنزال الكتب".

نعدّ سويا آثار رحمة الله-عزَّ وجلَّ-على خلقه، وكيف أنه-سبحانه وتعالى-أظهر لهم استحقاقه للألوهية من جهة آثار رحمته على خلقه، فهو قال-سبحانه وتعالى-في الآية: {وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} فله العظمة التامة وله الكبرياء، وأنت ترى هذا الأمر واضحًا في آثار رحمته. فقال:

1. برحمة الله وُجدت المخلوقات.
2. برحمته حصلت للمخلوقات أنواع الكمالات برحمة الله، فهو الذي كمل للخلق النعم، وبرحمته-سبحانه وتعالى-اندفعت عنها كل نقمة، فالكمالات التي اجتمعت للخلق والنقم التي اندفعت عن الخلق إنما هي من آثار رحمة الله.
3. وبرحمته-وهذا من أعظم الرحمة على الخلق-عرّف الله-عزَّ وجلَّ-نفسه للخلق، كيف عرف نفسه للخلق؟ أرسل الرسل وأنزل الكتب، لما أرسل الرسل وأنزل الكتب
   - عرف الخلق من خلال الرسل والكتب صفات الله العظيمة.
   - عرف الخلق من خلال الرسل والكتب كل ما يحتاجون إليه من مصالح دينهم ودنياهم.

فكانت هذه الرحمة العظيمة التي يعجز الخلق عن تقديرها ونحن في حال من:

1. التقصير في شكر هذه النعمة.

2. والإحساس فيها بالرحمة.

لكن **من تعلم الكتاب، وعرف من أسماء الله وصفاته، وشعر بآلائه، علم يقينًا أن هذه أعظم نعمة.**

أنه–سبحانه وتعالى–عرف نفسه لخلقه الضعفاء.

- فكيف يكون حالنا لو ما عرفنا أن ربنا قريب مجيب الدعاء؟!
- كيف يكون حالنا لو ما عرفنا أن ربنا غفور يغفر الذنب ويقبل التوب؟!
- كيف يكون حالنا لو ما عرفنا أن ربنا صمد نصمد إليه في كل حاجة من حاجاتنا؟!
- كيف يكون حالنا لو لم نعرف أن ربنا شديد العقاب؟! كيف سيكون حال التظالم؟!
- وكيف سيفقد الناس التراحم؟
- وكيف سيسيرون على هواهم؟!

لا يقدرون قدرة الله ولا يعرفون عظمة الله!

فما أعظمها من نعمة أن **يرسل لنا الرسول** وأن **ينزل عليه الكتاب** وأن **ييسّر لنا قراءة هذا الكتاب** وفهمه، فهو صاحب المنة الرحمن الرحيم.

قال:

"فإذا عُلم أن ما بالعباد من نعمة فمن الله، وأن أحدًا من المخلوقين لا ينفع أحدًا، عُلم أن الله هو المستحق لجميع أنواع العبادة".

كل ما بك من نعمة فهو من آثار رحمة الله والمخلوقين ليس لهم شيء، لا ينفع أحد أحدًا؛ إذًا النتيجة أن الله هو المستحق لجميع أنواع العبادة.

هو المستحق أن يُفرد بالمحبة والخوف والرجاء والتعظيم والتوكل، وغير ذلك

من أنواع الطاعات.

إذًا **الحق، هو الله**. والمستحق للعبادات، **هو الله**.

قال:

"فإذا علم أن ما بالعباد من نعمة فمن الله، وأن أحدا من المخلوقين لا ينفع أحدا، علم أن الله هو المستحق لجميع أنواع العبادة، وأن يفرد بالمحبة والخوف، والرجاء، والتعظيم، والتوكل، وغير ذلك من أنواع الطاعات. وأن من أظلم الظلم، وأقبح القبيح، أن يعدل عن عبادته إلى عبادة العبيد، وأن يشرك المخلوق من تراب برب الأرباب"

إذا **عُلم أن ما بالعباد من نعمة** فمن الله، عُلم أن الله هو المستحقّ لجميع أنواع العبادة، **وعُلم أيضًا أن من أظلم الظلم** وأقبح القبح أن **يُعدل عن عبادته إلى عبادة العبيد**؛ يترك الناس عبادة الله يعدلون عنها إلى عبادة العبيد!

ما بك من نعمة فمن الله فكيف تشكر غير الله؟!

فالعبادة **في حقيقتها هي الشكر**، قسَّم الله الناس إلى شاكر وكفور، أليس من أظلم الظلم وأقبح القبح أن تشكر غير من أعطاك؟! وتنصرف عمن أعطاك؟! أليس من الظلم أن يُشرك المخلوق من تراب برب الأرباب؟!

قال:

"وأن يُعبد المخلوق المدبَّر العاجز من جميع الوجوه مع الخالق المدبِّر القادر القوي الذي قهر كل شيء ودان له كل شيء؟!" نعم إنّ هذا عين الظلم:

- أن تضع شكرك لغير من وهب.
- وأن تضع ذُلّك وانكسارك لغير من ملك.
- وأن ترجو وتنتظر من غير مدبِّر، بل هو مدبَّر عاجز من جميع الوجوه!

فهذا أظلم الظلم، وهذا الأمر وقع الناس فيه بأنواع وأشكال، نسأل الله-عزَّ وجلَّ-أن يكشف عن الأمة الغمة، وأن يرزقها توحيدًا فإنّ **مبدأ هذه الأمة التوحيد ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح بها أولها**.

قال الشيخ:

"ففي هذه الآية إثبات وحدانية الباري وإلهيته، وتقريرها بنفيها عن غيره من المخلوقين".

أي أن الله واحد، {وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} لكم إله واحد، كيف تثبتون ألوهيته؟ نقول: هو الإله الواحد ولا إله غيره؛ إذًا نقررها بنفيها عن غيره، إلهنا إله واحد، وغيره لا يستحق الألوهية {لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}.

قال:

"وبيان أصل الدليل على ذلك" أي ما الدليل على أنه إله واحد لا إله إلا هو؟ {الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} **"بيان أصل الدليل على ذلك وهو إثبات رحمته التي من آثارها وجود جميع النعم واندفاع جميع النقم"** فهذا **دليل إجمالي على وحدانيته تعالى**، فمن نظر في الكون رأى نِعَم الله تَتْرى على الخلق، ورأى الخلق محفوظين من أخطار قريبة جدًّا منهم:

- فلا السماء سقطت عليهم ولا الأرض خسفت بهم.
- إنما يسيرون ويأتون ويبنون ويعرشون ويفعلون ما يريدون وهم في حفظ من الأخطار.
- بل يهوى الهاوي منهم أن يتسلق الجبال، فتراه يفعل وكثير من الأحيان يسلم!
- ويغوص ذاك في البحر وكثير من الأحيان ما يسلم!!

فرحمة الله التي وسعت كل شيء وعمت كل حي أعظم دليل على وحدانيته-سبحانه وتعالى-، إلا أن الخلق عندما ينظرون إلى ما هو موجود من آثار رحمته يظنون:

- أنه أتى كما اتفق.
- وأن هذه الأمور التي دبّرها الله إنما هي من طبيعة الكون.

وهذا من قبيح التفكير وضعيف العقل، وإلا لو علمت جيدًا أن كل شيء حولك يشهد بعظمته ستعرف مقدار فقرك وحاجتك إليه!

وهذا **مقام الوحدانية لا يصح تمامه في القلب إلا بعلمك عن الله.**

والله-عزَّ وجلَّ-نصب الأدلة في العلويات، والسفليات (في السماء والأرض)؛ تبصيرًا للجهال، وتذكيرًا للعلماء. من أجل أن يعودوا إلى رشدهم فيعلموا أن هذا لا يمكن أن يكون كما اتفق، وهذا سيتبين لنا بوضوح في الآية التي بعدها.

قال:

"ثم ذكر الأدلة التفصيلية" أي أن الدليل الإجمالي على وحدانية الله ما تراه من آثار رحمته، لكن الناس غافلون عن آثار رحمة الله فآتاهم الدليل التفصيلي.

نرى الآن الأدلة التفصيلية ونتأمّل كيف تظهر فيها أفعال الله يقول تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (164)}

نأتي هنا على الأدلة التفصيلية التي تنفع القوم الذين يعقلون-كما في آخر الآية-، والله من منّته على الخلق أنه لما أمرهم بالإيمان بالغيب ومدحهم على الإيمان بالغيب، لم يجعله غيبًا مطلقًا لا دلالات فيه، إنما ركب في الناس العقول. ونشر الأدلة، وكثّرها.

ومن العجب أنه خلق عقول الناس **متفاوتة** وجعل في الكون أدلة **متفاوتة.**

الناس عقولهم بعضها:

- تدرك القريب.
- وبعضها تدرك البعيد.
- بعضها يدرك المجمل.
- وبعضها يدرك المفصل.

- بعضها ينظر في الكواكب والنجوم ويبحث في الفلك.
- وبعضها يبحث في جسم الإنسان.
- وبعضها يبحث في المعادن والجبال.

فسبحان الملك العظيم، نوّع الأدلة لأصحاب العقول!!

وبهذا يكون لا حجة! فقد اجتمعت الثلاثة الأمور التي لا بدّ أن تسبب الإيمان.

1) أعطى الخلق عقولًا تدرك.
2) ونشر الأدلة التي تُدرَك.
3) وأرسل الرسول يرشد ويعلم.

فاجتمع على الخلق كل ما يقطع عليهم حُجتهم، لكن الناس منصرفون عن ذلك مستخدمون عقولهم فيما لا ينفعهم، الله-عزَّ وجلَّ-من آثار رحمته ورأفته بخلقه جعل العالم-السماوات والأرض-محتويًا على أدلة إجمالية وتفصيلية تعجز القوى البشرية عن ضبطها كلها يُستدل بها على **وحدانيته**.

بعض هذه الأدلة أوضح من بعض، **ليشترك الكل في المعرفة**، فتحصل **للكل** المعرفة بمقدار **ما اعتنوا بالدلائل**، لكن الشقي **من طُبع على قلبه وترك الاستدلال بعظيم فعل الله**.

قال:

"أخبر تعالى أن هذه المخلوقات العظيمة (آيات) أي أدلة على وحدانية الباري وعظيم سلطانه ورحمته وسائر صفاته" أي أنك ستسمع الآن من الأدلة ما يدل على أنه إله وعلى أنه واحد، وأنه-سبحانه وتعالى-رحمن رحيم، وسائر الصفات.

قال:

"ولكنها {لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} أي: لمن لهم عقول يُعمِلونها فيما خُلقت له" عقولنا خُلقت لوظيفة، فالقوم الذين يعقلون هم الذين يستخدمون عقولهم فيما خُلقت له، يُعمِلونها أي يُشغلونها.

"فعلى حسب ما مَنّ الله على عبده من العقل ينتفع بالآيات ويعرفها بعقله وفكره وتدبّره" فهذا يجعلنا شديدي التنبّه لسبب **زيادة الإيمان**، الآية فيها دليل على أن من وسائل وأسباب وطرق زيادة الإيمان التعقّل، بمعنى التفكّر.

فإن **من أحسن استخدام عقله** فُتحت له **زيادة الإيمان واليقين والثبات**، اللهم ثبتنا على الحق والإيمان.

قال:

"ففي خلق السماوات أي في:

- **ارتفاعها.**
- **واتساعها.**
- **وإحكامها وإتقانها.**
- **وما جعل الله فيها من الشمس والقمر والنجوم.**
- **وتنظيمها لمصالح العباد.**

وفي خلق الأرْضِ مهادا للخلق، يمكنهم:

1) **القرار عليها**
2) **والانتفاع بما عليها**
3) **والاعتبار"**

هذه ثلاثة أمور: يمكنهم القرار، ويمكنهم الانتفاع، ويمكنهم الاعتبار، فالله خلق هذه الأرض أهلها يتمتعون بها وينفعون بها ويعتبرون بما فيها.

قال:

"ما يدل ذلك على انفراد الله تعالى بالخلق والتدبير، وبيان قدرته العظيمة–إذًا ما تراه في السماوات والأرض يدل على قدرته–**التي بها خلقها** –إذًا خلق السماوات والأرض يدل على القدرة–، **وحكمته**

التي بها أتقنها، وأحسنها ونظمها" أيضا تدل على الحكمة، أين تظهر آيات الحكمة؟ في إتقان آيات السماوات والأرض وإحسانها وإتقانها ونظمها.

وأيضًا يدلّك على أي شيء من صفاته؟ على علمه ورحمته، في أي شيء؟ **قال: "التي بها أودع ما أودع، من منافع الخلق ومصالحهم، وضروراتهم وحاجاتهم"**. إذًا من خلق السماوات والأرض تبينت لنا قدرة الله، حكمة الله، علم الله، رحمة الله.

فالقدرة في خلقها، والقدرة في إتقانها وإحسانها ونظمها، والعلم والرحمة فيما ترى فيها من عطايا أودع فيها ما أودع من منافع الخلق ومصالحهم وضروراتهم وحاجاتهم.

قال:

"وفي ذلك أبلغ الدليل على كماله، واستحقاقه أن يفرد بالعبادة لانفراده بالخلق والتدبير، والقيام بشؤون عباده" أي هو الذي خلق السماوات والأرض، فهو الذي يُفرد بالعبادة؟ لأي شيء؟ لأنه انفرد بالخلق والتدبير والقيام بشؤون عباده، فكيف يُنكر توحيده ورحمته فانظر إلى السماء والأرض، من خلقهم واحد ومن يدبّرهم واحد، لو كان إله السماء غير إله الأرض، كيف ستكون المنافع لإحداهما؟ كيف ترتبط منافع هذه بمنافع هذه؟ إنه إله واحد، وترى آثار رحمته في كل شيء.

قال:

" {و} في {اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ} وهو تعاقبهما على الدوام، إذا ذهب أحدهما، خلفه الآخر، وفي اختلافهما في الحر، والبرد، والتوسط، وفي الطول، والقصر، والتوسط، وما ينشأ عن ذلك من الفصول، التي بها انتظام مصالح بني آدم وحيواناتهم، وجميع ما على وجه الأرض، من أشجار ونوابت، كل ذلك بانتظام وتدبير، وتسخير، تنبهر له العقول، وتعجز عن إدراكه من الرجال الفحول، يدل على ماذا؟ **ما يدل ذلك على قدرة مصرفها، وعلمه وحكمته، ورحمته الواسعة، ولطفه الشامل، وتصريفه وتدبيره، الذي تفرد به، وعظمته، وعظمة ملكه وسلطانه، مما يوجب أن يؤله ويعبد، ويفرد بالمحبة والتعظيم، والخوف والرجاء، وبذل الجهد في محابه ومراضيه"** يدل على أي شيء اختلاف الليل والنهار؟ يدل على قدرة مصرفها وعلمه وحكمته، ورحمته الواسعة ولطفه الشامل وتصريفه

وتدبيره الذي تفرد به وعظمته وعظمة ملكه وسلطانه-سبحانه وتعالى-مما يوجب أن يؤله ويعبد ويفرد بالمحبة والتعظيم. فهو الذي خلق السماوات والأرض وما فيهما من أمور عظيمة، وهو الذي يدبر اختلاف الليل والنهار، لو كان إله النهار غير إله الليل-كما يدعي **الصابئة** كما يدعي **المجوس**-لكان انتظام الخلق مستحيلًا، ولكان هذا التصريف العظيم قد **انفرط عقده**، ولو كان إله الليل كما يقولون إله الشر، غير إله النهار وهو إله الخير، كيف كان حال الخلق **وقد انتظم** أمر كل شيء بتعاقب الليل والنهار؟!

فهذا كله دليل "**على وحدانيته-سبحانه وتعالى-وعلى كمال صفاته فقدرته وعلمه ورحمته ولطفه وعظمة ملكه وسلطانه كله ظاهر في تدبيره لما في السماوات والأرض. مما يوجب أن يؤله ويعبد ويفرد بالمحبة والتعظيم والخوف والرجاء وبذل الجهد في محابه ومراضيه**" نعم إنّ من تأمّل في الليل والنهار واختلافهما لابد أن يجد في قلبه ما يدله على عظمة الله، لو تفكر في هذا الإحكام وهذا الإتقان وهذا اللطف وهذه العطية لما كان منه إلا محبة الله وتعظيمه وخوفه ورجائه.

قال:

"**وفي {وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ} وهي السفن والمراكب ونحوها، مما ألهم الله عباده صنعتها، وخلق لهم من الآلات الداخلية والخارجية ما أقدرهم عليها**" وهنا نرى أمرًا عجيبًا، فهنا إشارة إلى شيء الخلق صنعوه، لكنه يبين لنا أنه من آثار عطيته ورحمته، وسيظهر هذا الكلام من خلال كلام الشيخ إن شاء الله.

قال:

"**ثم سخر لها هذا البحر العظيم والرياح، التي تحملها بما فيها من الركاب والأموال، والبضائع التي هي من منافع الناس، وبما تقوم به مصالحهم وتنتظم معايشهم ثم سخر لها هذا البحر العظيم**" أي أن الخلق أعطاهم الأدوات والآلات التي يصنعون بها الفلك، وكما نعلم أن الله هو الذي علم نوح كيف يصنع هذه الفلك ثم سخر لها هذا البحر العظيم لتجري فيه، والرياح التي تحملها بما فيها من الركاب والأموال والبضائع التي هي من منافع الناس، وبما تقوم به مصالحهم وتنتظم معايشهم. فمن الذي ألهم الخلق صنعتها وأقدرهم عليها وخلق لهم من الآلات ما به يعملونها؟

أي: أدوات الإنسان: عقله، وقدرته، والمواد الخام. كل هذا من ألهمهم صناعتها؟ ومن أعطاهم القدرة على القيام بذلك؟!

قال:

"فمن الذي ألهمهم صنعتها، وأقدرهم عليها، وخلق لهم من الآلات ما به يعملونها؟ أم من الذي سخر لها البحر، تجري فيه بإذنه وتسخيره، والرياح؟ أم من الذي خلق للمراكب البرية والبحرية، النار والمعادن المعينة على حملها، وحمل ما فيها من الأموال؟" أم من الذي سخر لهم البحر تجري فيه بإذنه وتسخيره والرياح؟ أم من الذي خلق للمراكب البرية والبحرية النار والمعادن المعينة على حملها وحمل ما فيها من الأموال؟ فإنكم كما تعلمون أن المراكب إما أن تكون معتمدة على الرياح، أو النار، والنار هي الوقود، فيسأل الشيخ يقول: من الذي وهبهم هذه المواهب؟ من الذي أعطاهم هذه العطايا؟

ويقرر هنا مسألة غاية في الأهمية نحتاج دائما أن نفكر بهذه الطريقة.

قال:

"فهل هذه الأمور حصلت اتفاقا؟!" أي هل المخترعات التي يخترعونها الخلق حصلت بالاتفاق؟!

قال:

"أم المسخر لذلك رب واحد، حكيم عليم، لا يعجزه شيء، ولا يمتنع عليه شيء؟ بل الأشياء قد دانت لربوبيته، واستكانت لعظمته، وخضعت لجبروته" وغاية العبد الضعيف أن جعله الله جزءً من أجزاء الأسباب، التي بها وجدت هذه الأمور العظام، فهذا يدل على رحمة الله وعنايته بخلقه، وذلك يوجب أن تكون المحبة كلها له، والخوف والرجاء، وجميع الطاعة، والذل والتعظيم.

السؤال الثاني: **"هل الإنسان استقل بذلك وحده؟"** أي ما علمه الله ولا أقدره، أي استقل بهذا الأمر العظيم وهو الذي خرج من بطن أمه **"لا علم له ولا قدرة ثم خلق له ربه القدرة، وعلمه ما يشاء تعليمه"** لا يعرف شيئا ولا يقدر على شيء؟ وبالعلم والقدرة تحصل هذه الصناعات، ثم الله هو الذي خلق له القدرة علمه ما يشاء تعليمه؟

قال:

"أم المسخر لذلك رب واحد، حكيم عليم، لا يعجزه شيء، ولا يمتنع عليه شيء؟ بل الأشياء قد دانت لربوبيته، واستكانت لعظمته، وخضعت لجبروته.

وغاية العبد الضعيف، أن جعله الله جزءً من أجزاء التي بها وجدت هذه الأمور العظام" إذًا عندما أفكر في أي عطية أعطانا الله إياها **لكن أجراها على يد الخلق** في أي تطور حديث يفتن الناس، نفكر بهذا الأسلوب، نسأل أنفسنا هذه **الثلاث أسئلة:**

الأول: هل هذا الاختراع حصل اتفاقًا؟ أي اكتشفوا اكتشافات بمحض الصدفة؟ إذًا الأمر الأول مستحيل أن يخترعوا هذه الاختراعات بمحض الصدفة.

ثانيًا: هل الإنسان استقل وحده ما علمه الله ولا أقدره، استقل بهذا العمل العظيم وهو الذي خرج من بطن أمه لا يعرف شيئًا ولا يقدر على شيء؟ ثم الله هو الذي علمه وأقدره ثم يكون في النهاية هو الذي اخترع هذا الاختراع من المستحيل أن العبد يكون مستقلًا بهذا العمل وهو الذي خرج من بطن أمه عاجزا لا ينفع نفسه، جاهلًا لا يعرف شيء في الحياة ثم الله-عزَّ وجلَّ-أقدره وعلمه.

أم أن الحقيقة أن الله هو المسخر لذلك وهو الرب الواحد الحكيم العليم لا يعجزه شيء ولا يمتنع عليه شيء، بل الأشياء قد دانت لربوبيته واستكانت لعظمته وخضعت لجبروته، وغاية العبد الضعيف أن جعله الله جزءً من أجزاء الأسباب التي وجدت بها هذه الأمور العظام وهو الذي يرشدهم ويدلهم ويعلمهم كيف ينتفعون من الأرض، فإذا كان هو الذي ألهم النحل أن تتخذ هذه البيوت العجيبة، فكيف نشك أنه هو الذي علم بني آدم كيف يصلون إلى هذه المخترعات العجيبة؟! فهذه المخترعات تزيدك إيمانًا **أن الله هو الذي علم أهل الأرض**، ومن كان مؤمنًا لا تكون هذه المخترعات في حقه **فتنة**، أو تشعره **بالبعد عن الله والاستغناء عنه**، إنما في حقيقتها-هذه المخترعات-تزيده يقينا أن الله هو الذي علم خلقه وألهمهم، **كما ألهم النحل كيف تبني هذه البيوت.**

فسبحان من جعلهم يستطيعون أن يستفيدوا مما وضعه في الأرض مما ذرأه لهم من المعادن والهواء والغازات ومن كل مادة خام **خلقها لهم وأودع في عقولهم** أن يتنفعوا منها، فما العبد الضعيف إلا جزء من أجزاء الأسباب التي وجدت بها هذه الأمور العظام.

النتيجة المهمة: "فهذا يدل على رحمة الله وعنايته بخلقه، وذلك يوجب أن تكون المحبة كلها له، والخوف والرجاء، وجميع الطاعة، والذل والتعظيم" فهو الرب العظيم الذي علَّم هؤلاء الخلق الضعفاء، وأيضًا من آياته ما أنزل الله من السماء من ماء وهو المطر النازل من السحاب فأحيا به الأرض بعد موتها فأظهرت بأنواع الأقوات وأصناف النبات ما هو من ضرورات الخلائق التي لا يعيشون بدونها، أليس ذلك دليلًا على قدرة من أنزله وأخرج به ما أخرج؟! وأنت تنظر إلى الأرض تراها ميّتة فترى آثار رحمة الله يحي الأرض بعد موتها؟

قال:

"{فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا} فأظهرت من أنواع الأقوات، وأصناف النبات، ما هو من ضرورات الخلائق، التي لا يعيشون بدونها.

أليس ذلك دليلًا على قدرة من أنزله، وأخرج به ما أخرج ورحمته، ولطفه بعباده، وقيامه بمصالحهم، وشدة افتقارهم وضرورتهم إليه من كل وجه؟" بلى، فإن الأرض الميتة التي لا نبات فيها، عندما تراها قد نبتت ترى عجيب فعل الله-عزَّ وجلَّ-فيها، أما يوجب ذاك أن يكون هو معبودهم وإلههم؟! أليس ذلك دليلًا على إخراج الموتى ومجازاتهم بأعمالهم.

أي أن إحياء الأرض له وجهان:

1. وجه من جهة الدلالة على قدرته ورحمته بخلقه وكمال صفاته.
2. ووجه يدل على إحياء الموتى ومجازاتهم بأعمالهم.

قال:

"{وَبَثَّ فِيهَا} أي: في الأرض {مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ} أي: نشر في أقطار الأرض من الدواب المتنوعة، ما هو دليل على قدرته وعظمته، ووحدانيته وسلطانه العظيم، وسخرها للناس، ينتفعون بها بجميع وجوه الانتفاع" **هذا من ضمن الآيات التي تدل تفصيلًا على عظمة الله واستحقاقه للألوهية:**

- خلق السماوات والأرض آية.
- اختلاف الليل والنهار آية.
- والفلك التي تجري في البحر آية.

- وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها آية.
- والآن {وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ} أي: بث في الأرض من كل دابة أي: نشر في أقطار الأرض من الدواب المتنوعة فهو دليل على قدرته وعظمته.

وأهل علم الحيوان يعلمون هذا الشيء جيدا ويدركون كيف أن في كل أرض هناك نوع من الحيوانات لا يوجد في غيرها، دليل على عظمة الله ووحدانيته وسلطانه العظيم، وكيف أنه سخرها للناس ينتفعون بها بجميع وجوده الانتفاع، فهذه الحيوانات "**منها:**

- **ما يأكلون من لحمه.**
- **ويشربون من دره.**
- **ومنها ما يركبون.**
- **ومنها ما هو ساع في مصالحهم وحراستهم.**
- **ومنها ما يُعتبر به"**

النمل، النحل، الجمال، منها ما يؤكل لحمه ويشرب من دره، ومنها ما يركب، وترى الحيوانات ساعية في مصالح الإنسان، تحرسه وتحرث له ومنها ما يعتبر بها تنظر إليها، فتعتبر بصبرها، تعتبر بجهدها تعتبر بتنظيمها.

قال:

"**ومع أنه بث فيه من كل دابة فإنه سبحانه هو القائم بأرزاقهم المتكفل بأقواتهم فما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها**" فنحن عن هذه الدواب لسنا مسؤولين ولسنا نحن الذين نطعمهم، بل نحن وهم يطعمنا الله.

قال:

"**وفي {وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ}**–وهذه هي الآية التي بعدها، أي بعدما تبين خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك وما أنزل الله من السماء وبث فيها من كل دابة الآن نسمع عن تصريف الرياح–**باردة وحارة، وجنوبًا وشمالًا وشرقًا ودبورًا وبين ذلك، وتارة تثير السحاب، وتارة تؤلف بينه، وتارة تلقحه، وتارة تدره، وتارة تمزقه وتزيل ضرره، وتارة تكون رحمة، وتارة ترسل بالعذاب**" فما

أعظم من يملك هذه السحاب ويصرفها-سبحانه وتعالى-!! فمن الذي صرفها هذا التصريف؟! لابد أن تسأل نفسك: من الذي أودع فيها من منافع العباد ما لا يستغنون عنه؟

"فمن الذي صرفها هذا التصريف، وأودع فيها من منافع العباد، ما لا يستغنون عنه؟ وسخرها ليعيش فيها جميع الحيوانات، وتصلح الأبدان والأشجار، والحبوب والنوابت، إلا العزيز الحكيم الرحيم، اللطيف بعباده المستحق لكل ذل وخضوع، ومحبة وإنابة وعبادة؟" فهو الذي رعى عبده وأنشأ لهم ما ينفعهم ثم هم يكفرون نعماؤه ويتنغصون على نقص شيء بسيط في حياتهم.

آخر آية من الآيات السحاب المسخر:

قال:

"وفي تسخير السحاب بين السماء والأرض على خفته ولطافته يحمل الماء الكثير، فيسوقه الله إلى حيث شاء، فيحيي به البلاد والعباد، ويروي التلول والوهاد، وينزله على الخلق وقت حاجتهم إليه، فإذا كان يضرهم كثرته، أمسكه عنهم، فينزله رحمة ولطفا، ويصرفه عناية وعطفا، فما أعظم سلطانه، وأغزر إحسانه، وألطف امتنانه، أليس من القبيح بالعباد، أن يتمتعوا برزقه، ويعيشوا ببره وهم يستعينون بذلك على مساخطه ومعاصيه؟" والله هذا من أقبح القبيح، أن يتمتع الإنسان بنعم الله فلا يشكر ويكفر ويستعمل هذا في عدم شكر الله، في المعاصي!

"أليس ذلك دليلًا على حلمه وصبره، وعفوه وصفحه، وعميم لطفه؟" بلى والله! فرغم معصية الخلق ولكن نعمه على الخلق تَتْرى! فلا زالت نعمه على الخلق باقية، يذيقهم بعض ما كسبوا، بعض ما اقترفوا علهم يعودون ويرجعون إلى ربهم.

قال:

"فلله الحمد أولًا وآخرًا، وباطنًا وظاهرًا. والحاصل أنه كلما تدبر العاقل في هذه المخلوقات، وتغلغل فكره في بدائع المبتدعات، وازداد تأمله للصنعة وما أودع فيها من لطائف البر والحكمة، علم بذلك، أنها خلقت للحق وبالحق، وأنها صحائف آيات" وأنها صحائف، هذه الأرض وهذه السماء كلها صحائف آيات وكتب دلالات اقرأ فيها أيها العاقل ما يزيدك إيمانًا، **"وكتب دلالات، على ما**

أخبر به الله عن نفسه ووحدانيته، وما أخبرت به الرسل من اليوم الآخر، وأنها مسخرات، ليس لها تدبير ولا استعصاء على مدبرها ومصرفها".

فأنت ترى الشمس كل يوم تشرق بإذن ربها وتغرب، وترى النجوم منتشرة في السماء يمسكها الله كل هذا **كتاب مفتوح** يزيد إيمانك، **تعبّدك بالتفكر من أعظم أسباب زيادة الإيمان**، والإيمان من أعظم الأعمال "**فتعرف أن العالم العلوي والسفلي كلهم إليه مفتقرون**–ونحن معهم–**وكلهم إليه صامدون**– ونحن معهم–**وأنه الغني بالذات عن جميع المخلوقات، فلا إله إلا الله، ولا رب سواه**".

نسأل الله بمنّه وكرمه أن يجعلنا ممن تيقّظ للآيات وانتفع بها، ممن عقل فانتفع بعقله، انفعنا يا رب بما وهبتنا واجعلنا من أولي الألباب الذين يتبصّرون في آياتك فيزدادوا إيمانًا، وقنا عذاب النار، وقنا عذاب النار.

انتهى لقاؤنا أسأل الله أن يطيل في حياتنا ويزيد إيماننا وأن يجعلنا ممن انتفع بكلامه اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، اللهم تقبل منا الصيام وأعنّا على القيام وثبتنا على دينك يا رؤوف يا رحيم يا لطيف بالعباد.

اللقاء الثالث

تفسير الآيات 257– 260 من سورة البقرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمده-سبحانه وتعالى-ونشكره وهو أهل للثناء والحمد، ونستغفره وهو الغفور الرحيم، الرب الكريم، امتنّ على خلقه بمواسم الطاعات ليزدادوا إيمانًا، وأنزل عليهم القرآن فكان طريقهم للإيمان، وجعل الإيمان أعظم الأعمال، وسبّب أسبابًا لزيادته، فهذه المنَّة العظيمة التي هي أعظم المنن الواجب علينا أن نعتني بها ونطلب زيادتها، ونستعيذ بالله من أسباب نقصها.

قال تعالى: {وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا}[1] فإن الإيمان هو أعظم واجب كُلف به الإنسان، فهو حقّ الله-عزَّ وجلَّ-على عباده، مَن حققه كان له الفوز والفلاح والنجاح، وكان له التمكين في الأرض، فكيف نغفل عن ذلك؟! ومَن أخلّ به كان له الخسران المبين.

ولا فرق في الإيمان بين إنسان وإنسان ولا فرق بين الناس إلا على حسب الإيمان، كل الناس مطالبون بتحقيق الإيمان، وهذا الإيمان إذا حققته الأمّة، كتب لها التمكين في الأرض، وكتب لها النصر والعزة، وإن أخلّت به، كتب الله عليها الذلة والصغار ومحقها وسحقها؛ ولهذا من ذاق طعم الإيمان عرف حقيقة ما عليه الخلق اليوم.

والله-عزَّ وجلَّ-عرض علينا الإيمان في كتابه بطرق عدة، من أعظمها: أنه علّمنا عن أسمائه وصفاته وأفعاله، كما في آية الكرسي في سورة البقرة، ثم لما علمنا عن أسمائه وصفاته وأفعاله بيّن لنا أمرًا في غاية الأهمية وهو أنه {لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ}، لماذا لا إكراه في الدين-وهذه الآية أتت بعد آية الكرسي-؟ لأنه {قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}، أي: من علم صفات الباري-سبحانه وتعالى-المذكورة في آية الكرسي، علم أن العاقل لا يحتاج إلى إكراه، بل يختار الدين الحقّ من غير تردّد، إذا عرف أسماء الله-عزَّ وجلَّ-وصفاته وآمَن بها.

في هذا السياق الله-عزَّ وجلَّ-يقول بعدما بيّن لنا كمال أسمائه وصفاته، وبعدما أعلمنا أنه لا إكراه في الدين يبيّن لنا-سبحانه وتعالى-كيف يعامل أهل الإيمان، فيقول سبحانه وتعالى: {اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ

(1) [سورة العصر: 1-3]

أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[1] فهذه الآية العظيمة مترتبة على سابقتها، وهي بمثابة الثمرة، فمن آمن بالله وعرف أسماءه وصفاته سيكون وليًّا من أولياء الله، الله-عزَّ وجلَّ-يخرجه من الظلمات إلى النور.

وهذه الولاية غاية، الولاية غاية، إن ولاية الله للعبد صلاح لدينه ودنياه، وفلاح في شأنه كله، فالعباد عليهم أن يكونوا حريصين غاية الحرص على الأسباب التي توصلهم إلى ولاية الله.

قال تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

{اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (257) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (258) أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (259) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (260)}[2].

قراءة تفسير الآيات من تفسير السعدي والتعليق عليها:

"{اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا} **وهذا يشمل ولايتهم لربهم، بأن تولّوه فلا يبغون عنه بدلًا ولا يشركون به أحدًا**" فهم ابتدؤوه بالولاية.

"**قد اتخذوه حبيبًا ووليًّا، ووالوا أولياءه، وعادوا أعداءه**" فبدأ الأمر عندهم، فماذا فعل لهم لله؟ ننظر الآن إلى فعله:

(1) [سورة البقرة: 257]
(2) [سورة البقرة: 257-260]

"فتولاهم بلطفه، ومنَّ عليهم بإحسانه، فأخرجهم من ظلمات الكفر والمعاصي والجهل إلى نور الإيمان والطاعة والعلم" وما أعظمه من نور! وهذه النعمة العظيمة إذا تولّى العبد ربه وتعلّق به، ملأ قلبه إيماناً، وعلّمه، وأعانه على الطاعات.

"وكان جزاؤهم على هذا أن سلّمهم من ظلمات القبر والحشر والقيامة، إلى النعيم المقيم والراحة والفسحة والسرور" فمن ذاق طعم النور هنا، نُوِّر له في قبره، ونُوِّر له في الحشر، ونُوِّر له يوم القيامة، فعلى هذا يكون الأمر كالتالي:

- اتخذ الله وليًّا، لا تبغِ عنه بدلًا ولا تشرك معه أحدًا، لا يتعلّق قلبك بغيره ولا يميل لأحد سواه، اتخذه وليًّا، والِ أولياءه وعادِ أعداءه.
- الجزاء أن الله يتولاك بلطفه، يعاملك بلطفه، فيحسن إليك، ويمنّ عليك بإحسانه، ماذا ستكون النتيجة هنا؟
- ستكون نور الإيمان والطاعة والعلم؛ أي: يعلمك، يملأ قلبك إيمانًا، ويطاوعك بدنك للطاعة؛ أي: يعينك على الطاعة، **هذا في الدنيا**، إن تتولاه يتولاك، فإن تولاك ملأ قلبك إيمانًا وعلمًا وطاعة، وهذا نور العلم والإيمان والطاعة، **وفي الآخرة** في لحظة قبضك، سلمك من الظلمات، سواء ظلمات القبر أو الحشر والقيامة، فتنتقل إلى النعيم المقيم والراحة والفسحة والسرور.

هذا لمن تولى ربه، فمن تولى ربه يخرجه من ظلمات الجهل والكفر والمعاصي والغفلة والإعراض، إلى نور العلم واليقين والإيمان والطاعة والإقبال الكامل على ربهم، ينور قلوبهم بما يقذف فيها من نور الوحي والإيمان، ييسّر لهم اليسرى ويجنبهم العسرى، هذا لمن تولاه.

نأتي للصنف الثاني الذين سمعوا آيات الله وأسماءه وصفاته **ولكنهم أعرضوا**:

قال: {وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ} انظروا إلى فعلهم: يخرجونهم من النور إلى الظلمات!

- هناك {اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ} كيف يعاملهم؟ {يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ}.
- وهنا {وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ} كيف يعاملونهم؟ {يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ}.

"فتولوا الشيطان وحزبه، واتخذوه من دون الله وليا ووالوه وتركوا ولاية ربهم وسيدهم" هم ابتدؤوا الشأن، **تركوا ولاية ربهم وسيدهم، فسلطهم عليهم عقوبة لهم**، مكَّن الشيطان منهم.

"فكانوا يؤزّونهم إلى المعاصي أزًّا، ويزعجونهم إلى الشرّ إزعاجًا"، وهذا فعلهم تسمع عن تفاصيله عجبًا عند من فَقَّهه الله وعلمه! وعند من تابع أحوال الناس ورأى شأن الأولياء ورأى شأن الأعداء.

فإنّ هذه الآية قاعدة عامة في معاملة الله لخلقه:

(من تولى الله تولاه الله، ومن تولى عن الله ولاه الله أعداء).

فالله-عزَّ وجلَّ-يريد بالخلق اليسر، والأعداء يريدون بهم العسر، فإذا تولى الإنسان الله، حفظه وحماه، وإذا تولى الإنسان عن الله، تركه لحزب الشيطان فسلطهم عليهم عقوبة لهم، فكانوا يؤزونهم إلى المعاصي أزا ويزعجونهم إلى الشرّ إزعاجًا، فالنتيجة:

"فيخرجونهم من نور الإيمان والعلم والطاعة إلى ظلمة الكفر والجهل والمعاصي، فكان جزاؤهم على ذلك أن حرموا الخيرات، وفاتهم النعيم والبهجة والمسرات، وكانوا من حزب الشيطان وأولياءه في دار الحسرة، فلهذا قال تعالى: {أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}" والله-عزَّ وجلَّ-ولاهم ما تولّوا وخذلهم ووكلهم إلى رعاية الشيطان وأوليائه، فأضلّوهم وأشقوهم وفضحوهم وكشفوا سترهم وثقلوا عليه العلم النافع والعمل الصالح وحرموهم السعادة، وتفاصيل هذا لا تُعد، تفاصيل هذا في الواقع لا تُعد، فإن ما ترى من أحوال الناس حال توليهم للشيطان أمر عظيم يشعرك بأن من غُشي على بصره وعلى قلبه وعلى سمعه إذا لم يكشف الله عنه فلا يستطيع أحد أن ينفعه!

ثم أنه-سبحانه وتعالى-بيّن لنا من أنواع تخبط الشيطان بالإنسان في الولاية كما حصل مع نبيه ورسوله وخليله إبراهيم في محاجته لذاك الذي تولى الشيطان.

وهذا نموذج عجيب تراه وترى أمثاله في الحياة، فهذا خليل الرحمن إبراهيم-عليه الصلاة والسلام-يحاج هذا الملك الجبار، وهو كما هو معروف في التفاسير كان معطلا منكرًا لربّ العالمين، فهو منكر لتوحيد الربوبية الذي هو أجلى الأمور وأوضحها، والسبب-كما هو مبيّن في الآيات-هو ما وهبه الله من مُلك.

فيقول الله-عزَّ وجلَّ-: {أَلَمْ تَرَ} وهذا كما مر معنا سابقا في قوله تعالى {أَلَمْ تَرَ} **من الكلمات التي علينا أن نعتني بها غاية العناية عندما نقرؤها في كتاب الله**، فإنك تلحظ أمرًا هنا، عليك أن ترى، هل رأيت الذي حاج إبراهيم؟ هل رأيته من نور البصيرة؟

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ} يحاجه في الرب الذي ربوبيته أجلى الأمور وأوضحها {أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ}.

{آتَاهُ} انظر إلى فعل الله، {آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ} فهل هذا ردّ من أعطاه الله؟! وإن كان الله-عزَّ وجلَّ- أعطى هذا الملك في الدنيا فقد أعطى إبراهيم الخليل العلم اليقيني ما لم يعط أحدًا من الرسل سوى محمد -صلَّى الله عليه وسلَّم-، إبراهيم-صلَّى الله عليه وسلَّم-أوتي من العلم واليقين ما يحاج به هذا الملك المسكين الذي تولى عدوه فخاب سعيه وذهب ملكه.

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِ-ي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِ-ي وَأُمِيتُ} هذا ردّه على فعل الله {قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}.

قال:

"يقول تعالى: {ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه} أي: إلى جرائته وتجاهله وعناده ومحاجته فيما لا يقبل التشكيك" فمن عرف الله بأسمائه وصفاته كما في آية الكرسي، ودخل إلى قلبه نور الإيمان لأنه تولى الله، لا يمكن أن يكون هذا حاله، فهذا متجاهل لكمال صفات الله، معاند، يحاج فيما لا يقبل التشكيك، ما الذي يحمله على ذلك؟

"وما حمله على ذلك إلا {أن آتاه الله الملك} فطغى وبغى ورأى نفسه مترئسًا على رعيته، فحمله ذلك على أن حاج إبراهيم في ربوبية الله فزعم أنه يفعل كما يفعل الله" والسبب أن من لم يعرف الله بأسمائه وصفاته، ولم يعرف نفسه بضعفها سيغتر بعطية الله، من لم يدخل النور إلى قلبه، نور العلم والإيمان والطاعة سيكون هذا حاله، فماذا قال له إبراهيم-عليه السلام-؟

قال له: ربي الذي يحيي ويميت، أي هو المتفرد بأنواع التصرف، وخص منهما الإحياء والإماتة لكونهما أعظم أنواع التدابير، ولأن الإحياء مبدأ الحياة الدنيا والإماتة مبدأ ما يكون في الآخرة" هو يدعي أنه الإله وينكر ربوبية الله، ويدعي أن له أفعالا مثل أفعال الله، فلما وُصف الله بالكمال بذل جهده أن يصف نفسه بالكمال، ولما حاجه إبراهيم بأفعال الله والتي أعظمها مشاهدة ورؤية الإحياء والإماتة، حاجه بأنه هو أيضا يحيي ويميت!

"فقال ذلك المحاج: {أنا أحيي وأميت} ولم يقل أنا الذي أحيي وأميت؛ لأنه لم يدع الاستقلال بالتصرف، وإنما زعم أنه يفعل كفعل الله ويصنع صنعه، فزعم أنه يقتل شخصا فيكون قد أماته، ويستبقي شخصا فيكون قد أحياه" انظر الآن إلى فعل إبراهيم-عليه السلام-وكيف العلم واليقين يفعلان بصاحبهما، **"لما رأى إبراهيم الرجل يغالط في مجادلته ويتكلم بشيء لا يصلح أن يكون شبهة فضلا عن أن يكون حجة، أي شيء لا يشتبه على أحد، اطرد معه في الدليل"**، وهذا ليس لأنه لا يستطيع أن يرد على دليله، لا، ليس الأمر كذلك، ولكن هذا جواب أحمق؛ لأنه جواب لا يصح نصبه في مقابلة حجة إبراهيم؛ لأن إبراهيم-عليه السلام-أراد غير ما أراد الكافر، فلو قال له: ربي الذي يخلق الحياة والموت في الأجساد فهل أنت تقدر على ذلك؟ لبُهت، لكن الرجل أعمى، فانتقل معه إلى حجة أخرى أوضح منها ليظهر عجزه، ولكيلا يخرج منها بمخرج، لا يكابر ولا يشاغب ولا يلبس على العوام على أنه عنده كلاما يستطيع أن يقوله.

ماذا قال له في هذه الحجة؟ قال: فإن الله-أي من أفعاله-يأتي بالشمس من المشرق، فإن كنت صادقا فأت بها من المغرب.

"فقال إبراهيم: {فإن الله يأتي بالشمس من المشرق} أي: عيانا يقر به كل أحد حتى ذلك الكافر {فأت بها من المغرب} وهذا إلزام له بطرد دليله إن كان صادقا في دعواه" هو يقول أنا فعلي مثل فعل الله-تعالى الله عما يقولون-، قال له: ربي الذي يحيي ويميت، فقال: أنا أحيي وأميت، قال له: انظر من أفعال الله أنه يأتي بالشمس من المشرق فأنت افعل ما يضاده وأتِ بها من المغرب.

"فلما قال له أمرًا لا قوة له في شبهة تشوش دليله، ولا قادحا يقدح في سبيله {بهت الذي كفر} أي: تحير فلم يرجع إليه جوابا وانقطعت حجته وسقطت شبهته، وهذه حالة المبطل المعاند الذي

يريد أن يقاوم الحق ويغالبه، فإنه مغلوب مقهور، فلذلك قال الله تعالى: {والله لا يهدي القوم الظالمين}" أي: لا يهديهم حجة ولا يهديهم علمًا، إنما بسبب ظلمهم يتوهون، الله-سبحانه وتعالى- يخرج الناس من الظلمات إلى النور، لكن يخرج أولياءه الذين لا يتكبرون إنما يبحثون ويسألون ويريدون أن يتعلموا.

"**بل يبقيهم على كفرهم وضلالهم، وهم الذين اختاروا لأنفسهم ذلك، وإلا فلو كان قصدهم الحق والهداية لهداهم إليه ويسر لهم أسباب الوصول إليه**" فلو كان قصدهم الحق والهداية، لهداهم إليه، ويسّر لهم أسباب الوصول إليه يقينًا، يقينًا من يريد الهداية يسبّب الله له أسبابها، ولكن من أعرض، أعرض الله عنه.

"**ففي هذه الآية برهان قاطع على تفرد الرب بالخلق والتدبير**" ومن ظنّ نفسه أنه يفعل مثل فعل الله فقد حكم على نفسه بالضلال وبعدم الهداية أبدا، وبالظلم العظيم.

والآية من لوازمها: "**ويلزم من ذلك أن يفرد بالعبادة والإنابة والتوكل عليه في جميع الأحوال**".

لماذا نتوكل عليه في جميع الأحوال وننيب إليه ونعود؟ لأنه هو الرب المدبر فكيف لا نعتمد عليه؟! ولا نحسن الظن فيه؟! وتتعلق قلوبنا بغيره؟! وننخدع بتمكيننا في الأرض ننخدع في شيء نستطيع فعله؛ لأن الله أقدرنا عليه وسلطنا عليه!

"**قال ابن القيم-رحمه الله-: وفي هذه المناظرة نكتة لطيفة جدا، وهي أن شرك العالم إنما هو مستند إلى عبادة الكواكب والقبور، ثم صورت الأصنام على صورها، فتضمن الدليلان اللذان استدل بهما إبراهيم إبطال إلهية تلك جملة بأن الله وحده هو الذي يحيي ويميت، ولا يصلح الحي الذي يموت للإلهية لا في حال حياته ولا بعد موته، فإن له ربا قادرا قاهرا متصرفا فيه إحياء وإماتة، ومن كان كذلك فكيف يكون إلها حتى يتخذ الصنم على صورته، ويعبد من دونه، وكذلك الكواكب أظهرها وأكبرها للحس هذه الشمس وهي مربوبة مدبرة مسخرة، لا تصرف لها بنفسها بوجه ما، بل ربها وخالقها سبحانه يأتي بها من مشرقها فتنقاد لأمره ومشيئته، فهي مربوبة مسخرة مدبرة، لا إله يعبد من دون الله. (من مفتاح دار السعادة)**".

المقصد أن الآية تحمل ردًّا على من اعتقد ربوبية الكواكب أو استحقاقها للألوهية لأن الآية أظهرت تسخير الله لهذه الكواكب والتي من أعظمها الشمس.

تأتي الآيات التي بعدها أيضا دليل، **قال الشيخ**:

"وهذا أيضا دليل آخر على توحد الله بالخلق والتدبير والإماتة والإحياء" وهذا كله مناسب لآية الكرسي وما أتى بعدها أنه لا إكراه في الدين.

اسمع وتعلم عن الله وتعرف على صفاته وعلى أفعاله، ستجد أنه لا إكراه في الدين، لكن الفرق أن هناك قوم بذلوا جهدهم في ولاية الله وتعلقت قلوبهم في رضاه، فنوّر قلوبهم بالعلم والإيمان والطاعة، ونور قبورهم ومحشرهم وقيامتهم بالنور، فانظر إلى أفعاله التي بها يربي عباده ويعلمهم، وانظر إلى شأن هذا الذي مر على قرية.

يقول الله-عزَّ وجلَّ-: {أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ} أي: ألم تر إليه كيف هداه الله وأخرجه من ظلمة الاشتباه إلى النور، فلننظر إلى هذه الآية التي جعلها الله آية للناس.

قال:

"{أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها} أي: قد باد أهلها وفني سكانها وسقطت حيطانها على عروشها، فلم يبق بها أنيس بل بقيت موحشة من أهلها مقفرة، فوقف عليها ذلك الرجل متعجبا و {قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها} استبعادا لذلك وجهلا بقدرة الله تعالى، فلما أراد الله به خيرا أراه آية في نفسه وفي حماره، وكان معه طعام وشراب" ماذا قال؟ {قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها} استبعادا لذلك، استبعادًا لأي شيء؟ استبعادًا لإحيائها و{أنّى} هنا بمعنى متى يحيي الله؟ أو كيف يحيي الله؟ فهو يستبعد إحياؤها.

{أنّى} إما بمعنى متى أو كيف. وهذه كلها مشتركة فيها للاستبعاد، استبعادًا لذلك وجهلًا بقدرة الله تعالى.

فلما أراد الله به خيرًا، وهذا من إخراج الناس من الظلمات إلى النور ما داموا ليسوا بمكابرين، ما دام الإنسان لا يكابر، الله يربّيه ويعلمه، فلما أراد الله به خيرًا أراه آية في نفسه وماله، وكان معه طعام وشراب، هو وحماره وطعامه وشرابه.

قال:

"{فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ} استقصارا لتلك المدة التي مات فيها لكونه قد زالت معرفته وحواسه" فلما استيقظ عاد لحاله تمامًا قبل الموت، **وكان عهد حاله قبل موته،**

فقيل له بيانا للحقيقة: **{بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه} أي لم يتغير،** لم تغيره السنون، مرت عليه السنون ولم تغيره، **بل بقي على حاله على تطاول السنين واختلاف الأوقات عليه.**

ففيه أكبر دليل على قدرته حيث أبقاه وحفظه عن التغير والفساد، مع أن الطعام والشراب من أسرع الأشياء فسادًا".

ويقال إنه كان معه تين وعصير وهو مما يسرع إليه الفساد، أيًّا كان المهم أن هناك فارقًا بين الطعام وبين الآدمي، فترى أن الطعام أسرع من أي شيء آخر للفساد.

قال:

"{وانظر إلى حمارك} وكان قد مات وتمزق لحمه وجلده وانتشرت عظامه، وتفرقت أوصاله {ولنجعلك آية للناس} على قدرة الله وبعثه الأموات من قبورهم، لتكون أنموذجًا محسوسًا مشاهدًا بالأبصار، فيعلموا بذلك صحة ما أخبرت به الرسل.

{وانظر إلى العظام كيف ننشزها} أي: ندخل بعضها في بعض، ونركب بعضها ببعض {ثم نكسوها لحما} فنظر إليها عيانا كما وصفها الله تعالى.

{فلما تبين له} ذلك وعلم قدرة الله تعالى {قال أعلم أن الله على كل شيء قدير}".

وهذا الاعتراف من نعمة الله-عزَّ وجلَّ-على العبد أن يصل إليه يقينًا، وهذا دليل على أن الله يربي عباده، فإذا وقع في قلوبهم ظنونًا أزالها بما يمرّ عليهم من تربيته، فله الحمد كثيرًا وله الشكر كثيرًا على عنايته ورعايته بخلقه، وعلى تربيتهم وعلى إرادته بهم الخير.

وأن هذه الآية كالعماد في بيان تربية الله لخلقه، فإنه لا يترك الخلق على حالهم، بل يربيهم بآيات تدور حولهم وأحوال تخصهم أو تعم الناس، بحيث يزدادون إيمانًا، إذا كانوا صادقين يريدون الحق ما يتركهم الله في الشك، بل تمرّ عليهم من الأحوال ما تفيدهم وترفع مقامهم، شرطًا ألا يكونوا مستكبرين وعن ولاية الله معرضين، بل يكونوا مقبلين، حتى إن لم يكونوا من أهل اليقين، ولكنهم مقبلون يريدون الله يريدون رضاه، فتراه يربيهم وينقلهم من النقص إلى التمام، سبحان من هذه آثار رحمته وآثار تربيته!

قال:

"والظاهر من سياق الآية أن هذا رجل منكر للبعث أراد الله به خيرا، وأن يجعله آية ودليلا للناس"

والشيخ عنده ثلاثة أوجه تدل على هذا الاختيار أنه رجل وقع فنجاه الله بما أراه:

أحدها قوله: {أنى يحيي هذه الله بعد موتها}، يقول: فلو كان نبيًا أو عبدا لم يقل ذلك.

قال:

"والثاني: أن الله أراه آية في طعامه وشرابه وحماره ونفسه ليراه بعينه فيقر بما أنكره، ولم يذكر في الآية أن القرية المذكورة عمرت وعادت إلى حالتها، ولا في السياق ما يدل على ذلك، ولا في ذلك كثير فائدة، ما الفائدة الدالة على إحياء الله للموتى في قرية خربت ثم رجع إليها أهلها أو غيرهم فعمروها؟! وإنما الدليل الحقيقي في إحيائه وإحياء حماره وإبقاء طعامه وشرابه بحاله.

والثالث: في قوله: {فلما تبين له} أي: تبين له أمر كان يجهله ويخفى عليه، فعلم بذلك صحة ما ذكرناه، والله أعلم".

ثم نأتي إلى دليل ثالث وموقف عظيم من مواقف إبراهيم-عليه السلام-، مر معنا في المحاجة وهو ثباته ورسوخه في عقيدته ومحاجته لأهل الشرك، فالتوحيد أبين ما يكون لإبراهيم-عليه السلام-، وكذلك هو لأتباعه.

فمن كان إبراهيم-عليه السلام-قدوته، كان التوحيد من اهتماماته ومسؤولياته.

يتعلم عن الله أسماءه وصفاته وأفعاله، وينشرها بين الخلق، ويحاج المكابرين المعاندين، أما إبراهيم-عليه السلام-فلم يدخل في قلبه شك، ولا تُفهم الآية التي سنقرؤها الآن على أنها شك، بل سنفهم معناها ويتبين لنا إن شاء الله حقيقتها.

في الآيات موقف لإبراهيم-عليه السلام-قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} .

قال الشيخ:

"وهذا فيه أيضا أعظم دلالة حسية على قدرة الله وإحيائه الموتى للبعث والجزاء، فأخبر تعالى عن خليله إبراهيم أنه سأله أن يريه ببصره كيف يحيي الموتى؛ لأنه قد تيقن ذلك بخبر الله تعالى، أما الإيمان بالغيب فهو موجود والإيمان بأن الله-عزَّ وجلَّ-يحيي الموتى فهو موجود، **ولكنه أحب أن يشاهده عيانا ليحصل له مرتبة عين اليقين، فلهذا قال الله له: {أولم تؤمن} وهذا ليزيل الشبهة عن خليله وذلك أنه بتوارد الأدلة اليقينية مما يزداد به الإيمان ويكمل به الإيقان ويسعى في نيله أولو العرفان"** إذًا سأله من أجل أن يزيل الشبهة عن خليله، قال له: {أولم تؤمن} أي هل هذا طلب مَن يريد دليلا من أجل أن يؤمن؟

فرد إبراهيم-عليه السلام-: {بلى} قد آمنت أنك على كل شيء قدير وأنك تحيي الموتى وأنك تجازي العباد ولكن يريد أن يصل إلى مرتبة عين اليقين، فأجابه الله كرامة له ورحمة بالعباد من أجل أن يزيدهم

يقينا، وهذه خاصة بالأولياء، بعد أن يقبلوا ويؤمنوا ويعتنوا. فاجتمع دليل العيان-أنه رأى بعينه-إلى دليل الإيمان.

ويجب أن نعتقد أن إبراهيم-عليه السلام-لم يكن شاكًّا بإحياء الموتى، ولكن الخبر ليس كالمعاينة، فارتفع الإيمان بالمعاينة، ومن استدل بدليل نحن أحق بالشك من إبراهيم، فالحديث مبني على نفي الشك عن إبراهيم وليس إثباته، معناه: أنه لو كان شاكا لَكُنا نحن أحق به، أي لو كان إبراهيم شاكًّا كان الرسول أحق بالشك، والنبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-لم يشك فإبراهيم-عليه السلام-أحرى ألا يشك.

وهذا مثل قوله تعالى في سورة يونس حيث يخاطب نبيه فيقول: {فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ من قبلك}[1] فيه دلالة على أن النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-لم يشك، وإنما هذا الخطاب إنما يراد به النفي وليس الإثبات وهذا الكلام لا يقوله إلا من لا يعرف مكانة الأنبياء، وفيما ورد أن النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-قال: ((لا أشك ولا أسال))[2].

ونفهم من الآية أمرًا عظيمًا: **أن توارد الأدلة اليقينية مما يزيد اليقين**، فأنت عندما تكون مؤمنًا بالله زد تفكرًا وتأملًا وزد بحثًا وتفكرًا في آياته وملاحظة لأفعاله يزيد يقينك، وطلبك لزيادة اليقين لا يدل على شكك أبدًا.

قال:

"فقال له ربه: {فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك} أي: ضمهن ليكون ذلك بمرأى منك ومشاهدة وعلى يديك". وتنتفع من الدليل أنت وينتفع من الدليل غيرك، هو سأل (كيف تحيي؟) فهذا ليس سؤال شك، إنما سؤال عن حالة شيء موجود متقرر الوجود والسائل يقول: كيف يحصل كذا؟ أنت مؤمن أن الشيء حاصل، وأنت مؤمن بحصوله، وأنت تسأل عن (كيف) .

{ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا} أي: مزقهن، اخلط أجزاءهن بعضها ببعض، واجعل على كل جبل، أي: من الجبال التي في القرب منه، جزء من تلك الأجزاء {ثم ادعهن يأتينك سعيا} أي: تحصل لهن حياة كاملة، ويأتينك في هذه القوة وسرعة الطيران، ففعل إبراهيم-عليه السلام-ذلك

(1) [سورة يونس: 94]

(2) هذا الحديث مرسل، وقد ضعفه بعض العلماء إلا أن معناه صحيح، ويشهد للحديث ما روى الضياء في المختارة عن ابن عباس أنه قال فيها: لم يشك رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ولم يسأل.

وحصل له ما أراد وهذا من ملكوت السماوات والأرض الذي أراه الله إياه في قوله: {وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ}.

ثم قال: {واعلم أن الله عزيز حكيم} أي: ذو قوة عظيمة سخر بها المخلوقات، فلم يستعص عليه شيء منها، بل هي منقادة لعزته خاضعة لجلاله، ومع ذلك فأفعاله تعالى تابعة لحكمته، لا يفعل شيئا عبثا".

سبحانه وتعالى عما يصفه به الواصفون، وما أعظم كمال صفاته!

وما أعظم سيرة إبراهيم-عليه السلام-وما أعظم الاقتداء به والسير على سيره!

اللهم احشرنا مع النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-ومع أنبيائك ورسلك الذين اصطفيتهم على الخلق وذكرت لنا من قصصهم ما آمنا بها، اللهم زدنا إيمانًا بإيماننا برسلك وزدنا يقينًا وثبتنا على الحق واقبل منا أعمالنا اللهم آمين.

اللقاء الرابع

تفسير الآيات 102- 107 من سورة آل عمران

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيّدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمده–سبحانه وتعالى–وهو أهلٌ للثناء والحمد، ونستغفره من ذنوبنا وهو أهلٌ للتقوى وأهل للمغفرة، ونستعيذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، ونصلّي ونسلّم على سيّدنا مُحمّد صلاةً تدلّ على إيماننا وتصديقنا ورضانا بربّنا وبرسوله وبديننا، اللهمّ صلّ وسلّم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذا هو لقاؤنا الرابع من لقاءات رمضان لعام 1434هـ–، وسيكون إن شاء الله مدارستنا للآيات العظيمة التي سمعناها من آل عمران التي في مطلعها خطاب للذين آمنوا...

بسم الله الرحمن الرحيم

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (102) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (103) وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (104) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (105) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (106) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (107)}[1]

يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} وهذا أمْرٌ بالتقوى، أتى بعده {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا} وهذا أمْرٌ جديد، {وَلا تَفَرَّقُوا} نهي، نهانا عن الافتراق، أمرنا بالتقوى ونهانا على أن لا نموت إلا ونحن مسلمون وسيتبيّن لنا هذا النهي.

(1) [سورة آل عمران: 102–107]

أمرنا الله بالاعتصام بحبله ونهانا عن التفرّق، أمرنا بذكر نعمته قال: {وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ} اذكروا هذه النعمة، {فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} وسنرى إلى أي شيء سنهتدي.

إذًا مرة أخرى:

- أُمرنا بالتقوى ونُهينا أن نموت إلا ونحن مسلمون.
- أُمرنا بالاعتصام بحبل الله، ونهينا عن التفرّق.
- وأُمرنا بذكر نعمة الله، وأُعلمنا بأن الله يبين لنا آياته لعلنا نهتدي.

قال تعالى:

{وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ} وهذا أيضًا على وجه الأمر، ما وظيفتها؟ {يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ}، ما وصف هذه الأمة، ما جزاؤها، ما حالها عند الله؟ {وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}.

والنهي {وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا} متى حصل لهم التفرق والاختلاف؟ {مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ} ما حالهم عند ربهم، ما جزاؤهم؟ {وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}.

متى يكون الفلاح ومتى سيكون العذاب؟ {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ}.

- {فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ} يُسألون: {أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ}؟ وقع الإيمان ثم الكفر {فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ} إذًا "بما كنتم تكفرون إنكم تستحقون".
- {وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} إنهم يتمتّعون برحمة الله، أسأل الله–عزَّ وجلَّ–أن يجعلنا ممن ابيضّت وجوههم وممن تمتعوا برحمة الله في الدنيا ويوم أن نلقاه.

من هنا سيبدأ إن شاء الله فهمنا للآيات، نفهم الأوامر والنواهي ونطبق هذا على واقعنا، ونسأل الله أن يعيننا ويشرح صدورنا لمعرفة الحق، ولنعلم أن الدين ليس بالعاطفة إنما الدين أوامر يجب عليك امتثالها، وتدين الله بها، وستسأل عنها عندما تلقى الله، سنُسأل: {مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ}؟.

قال الشيخ-رحمه الله-في تفسير الآيات:

"هذا أمر من الله لعباده المؤمنين أن يتقوه حق تقواه" التي يستحقّها-سبحانه وتعالى-، وحقّ تقواه أمر عظيم، يستلزم من العبد طول الجهاد، يستلزم من العبد التنبّه، اتقوا الله كما يحقّ أن يكون متقوه {**حَقَّ تُقَاتِهِ**}، وهو-سبحانه وتعالى-يستحق منا عظيم الجهاد، يستحقّ منّا البذل لطلب رضاه، وحقّ تقاته كما قال ابن مسعود: **"هو أن يطاع فلا يُعصى، ويُذكر فلا ينسى ويشكر فلا يكفر"**. وسيأتينا في كلام الشيخ...

"وأن يستمروا على ذلك ويثبتوا عليه ويستقيموا إلى الممات، فإن من عاش على شيء مات عليه" إذًا ما تعليل النهي عن أن لا نموت إلا ونحن مسلمون؟ معناه استمر اثبت ابذل جاهد، واعلم أن من عاش على شيء مات عليه.

فمن كان في حال صحته ونشاطه وإمكانه-يعني متمكن-**مداومًا لتقوى ربه وطاعته، منيبًا إليه على الدوام، ثبّته الله عند موته ورزقه حسن الخاتمة.**

إذًا {وَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} سيعتمد على أن تتقي الله حقّ تقاته في صحتك، في نشاطك، في الوقت الذي أنت تستطيع أن تقوم فيه بالطاعة، وأنت دائمًا منيب إليه، دائمًا عائد إليه، دائمًا منكسر بين يديه، دائمًا متذلّل له، دائمًا تسأله وترجوه الثبات، فمن كان هذا حاله يتقي ويبذل جهده، يتوب إذا أخطأ، يعود إذا غفل، والله له هو الركن الشديد، وهو القريب المجيب، وهو الولي الحميد، وهو الصمد، من كان الله له بهذه الحال في حياته، **رزقه الله الثبات عند الموت ورزقه حسن الخاتمة**. فاللهم ثبتنا على طاعتك وأحسن خواتيمنا.

قال:

"وأما تقوى الله حق تقواه كما قال ابن مسعود: وهو أن يُطاع فلا يُعصى، ويُذكر فلا ينسى، ويُشكر فلا يكفر" وهذا كله بحسب طاقته وقدرته، وما لنا إلا الرجاء والدعاء والسؤال أن يعصمنا من الزلل، ومن الغفلة والكفر-كفر النعمة-الذي هو أعظم اختبار يختبر الله-عزَّ وجلَّ-به الخلق، فإن للخلق حال في السراء من الغفلة لا تكون في الضراء. فاللهم ثبتنا على دينك في السراء والضراء.

"وهذه الآية بيان لما يستحقه تعالى من التقوى، وأما ما يجب على العبد منها، فكما قال تعالى: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ}" أما حق الله عظيم لكن من رأفته بخلقه أوجب عليهم ما يستطيعون.

"وتفاصيل التقوى المتعلقة بالقلب والجوارح كثيرة جدًّا، يجمعها فعل ما أمر الله به، وترك كل ما نهى الله عنه" إذًا تفاصيل التقوى كثيرة، ما الجامع لها؟

الجامع: فعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه.

"ثم أمرهم تعالى بما يعينهم على التقوى" وهذا أمر في غاية الأهمية ما سيذكر الآن في الآيات من القيم المنسيّة التي فقدنا الكلام عنها! ومن ثم فقدنا ممارستها، وفقدنا التناصح بها، وفقدنا الإحساس بأهميتها! وأصبح الذي يدعو لها يكاد يكون شاذًّا! خصوصًا عندما لا يفهم الخلق المقصود من هذا الأمر.

قال الشيخ–رحمه الله–:

"ثم أمرهم تعالى بما يعينهم على التقوى ما الذي يعين على التقوى؟ **وهو الاجتماع والاعتصام بدين الله، وكون دعوى المؤمنين واحدة مؤتلفين غير مختلفين،** ويزيد الأمر بيانًا في تبيين المصالح، **فإن في اجتماع المسلمين على دينهم، وائتلاف قلوبهم:**

- **يصلح دينهم.**
- **وتصلح دنياهم.**
- **وبالاجتماع يتمكنون من كل أمر من الأمور.**
- **ويحصل لهم من المصالح التي تتوقف على الائتلاف ما لا يمكن عدها، من التعاون على البر والتقوى.**

إذًا: اجتماعهم على دينهم وائتلاف قلوبهم سبب لصلاح دينهم وصلاح دنياهم، بالاجتماع يتمكنون من كل الأمور التي فيها خير ويحصل لهم من المصالح التي تتوقف على الائتلاف ما لا يمكن عدها، من التعاون على البر والتقوى.

قال:

"كما أن بالافتراق والتعادي:

- **يختل نظامهم.**
- **وتنقطع روابطهم.**
- **ويصير كل واحد يعمل ويسعى في شهوة نفسه."**

وهذا أمر خطير جدا لا يشعر به إلا من ذاقه وعاشه ورأى الناس يتحولون بعد علم عن مصالح الشرع، عن الدعوة إلى الدين، عن التعاون على البر والتقوى، **إلى الدعوة إلى النفس وشهوتها!**

"بالافتراق والتعادي يختل نظامهم، وتنقطع روابطهم، ويصير كل واحد يعمل ويسعى في شهوة نفسه ولو أدى إلى الضرر العام" ما يفكر في العام، يفكر في نفسه، يفكر في رأيه، يفكر في منزلته عند الخلق، يفكر فيما يجعل شأنه عند الخلق عال، يفكر في الرئاسة والمناصب وفي العلو على الخلق ولو كان في أحقر الأشياء.

ولذلك أمرنا الله بهذا الأمر المهم الذي نرى عدم الفقه فيه متبيّن، ونرى أيضًا الدعوة الضد! يعني ما نرى الناس فقهوا معنى **{وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ}** وليس هذا فقط بل أتوا بفهوم على نصوص كأنها تدعوهم إلى التفرق! والآية غاية في الصراحة هذا حبل ممدود لكم من السماء شأنكم أن تتمسكوا به، اعتصموا بحبل الله جميعًا، اعتصموا بدين الله جميعًا، ولا تفرّقوا، ينهانا عن التفرّق.

قال الشيخ:

"ثم ذكرهم تعالى نعمته وأمرهم بذكرها" ذكرهم بالنعمة وأمرهم بالذكر، ما النعمة؟ النعمة عظيمة **{وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء}** **يقتل بعضكم بعضًا، ويأخذ بعضكم مال بعض، حتى إن القبيلة يعادي بعضهم بعضًا، وأهل البلد الواحد يقع بينهم التعادي والاقتتال، وكانوا في شرّ عظيم، وهذه حالة العرب قبل بعثة النبي صلَّى الله عليه وسلَّم، فلمّا بعثه الله وآمنوا به واجتمعوا على الإسلام وتآلفت قلوبهم على الإيمان كانوا كالشخص الواحد، من تآلف قلوبهم وموالاة بعضهم لبعض."**

إذًا الإيمان هو القضية، والتآلف عطية، وسنرى كيف التآلف عطية، يقول الله-عزَّ وجلَّ-: {إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ} إنه فعل الله، لا أحد يستطيعه، لكن الخلق اغتروا فنسوا الواجب عليهم من الأفعال وهو امتثال الأمر، ومن ثم من المؤكد أنهم نسوا عطية الله لهم، نسوا أن عليهم أن يمتثلوا الأمر وأن الله هو الذي يؤلف بين القلوب.

فحتى الوصول إلى الألفة ليس طريقه متروك لنا، إنما في الحقيقة كما نقرأ في الآية الفعل فعل الله {فَأَلَّفَ} هذا فعل الله.

{فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ} وانظر إلى هذا الفعل الآخر من أفعاله {فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا}.

قال:

"أي: قد استحقيتم النار ولم يبق بينكم وبينها إلا أن تموتوا فتدخلوها {فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا} بما مَنَّ عليكم من الإيمان بمحمد-صلَّى الله عليه وسلَّم- {كَذَلِكَ} وأنظر أيضًا إلى هذا الفعل من أفعال الله **{يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ}** -يُبيّن: فعل الله-**أي: يوضّحها ويفسّرها، ويبيّن لكم الحق من الباطل، والهدى من الضلال**، لأجل أي شيء؟ **{لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} بمعرفة الحق والعمل به، وفي هذه الآية ما يدل أن الله يحب من عباده أن يذكروا نعمته بقلوبهم وألسنتهم ليزدادوا شكرا له ومحبة"** ونحن نعترف بنعمة الله علمنا وأرشدنا ويسّر الأسباب وسهّل الطرق لمعرفته وتركنا نبينا على المحجّة البيضاء ليلها كنهارها، كل هذه النعم وكثير لا نستطيع عدها، نتذاكر سويًا فضله لنزداد شكرًا له ومحبة وهو المستحقّ للشكر، وليزيدنا هو من فضله-سبحانه وتعالى-وإحسانه.

قال:

"وإن من أعظم ما يُذكر من نعمه:

- **نعمة الهداية إلى الإسلام.**
- **واتباع الرسول-صلَّى الله عليه وسلَّم-.**
- **واجتماع كلمة المسلمين وعدم تفرقها."**

فاجتماع كلمة المسلمين نعمة عظيمة، فأين الساعين لها؟ أين الساعين لاجتماع كلمة المسلمين؟!

والساعين لاجتماع كلمة المسلمين يبدؤون بما يستطيعون، وأما ما يستطيعونه فهو بيوتهم وحلقات الذكر التي يرتادونها، وجماعة المسلمين الذين يحيطون بهم، وإنا والله نرى عجبًا أن الهوى قد حكم كثيرًا من الخلق استقاموا أو لم يستقيموا، فلا ترى حرصًا على الاجتماع، ولا ترى تنازلًا عن الأهواء، ولا ترى وعظًا من أجل أن يحصل هذا الاجتماع، بل فرقة بعد فرقة، وأفعال مخالفة للشرع تجعل الناس أحزابًا وأحزابًا، وفهوم خاطئة لنصوص صحيحة، والحقيقة أنه شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب كل ذي رأي برأيه!

وما أن تكلمهم عن الاجتماع إلا يكلمونك عن البدع، وليس معنى الأمر بالاجتماع أبدًا ولا هذا يُقصد أن تجتمع مع أهل البدع المكفرة أو المفسقة، ولا هذا معناه أن نقبل من كل أحد قوله، أبدًا ليس هذا هو المقصود، وسيأتينا في السياق ما يعلمنا ما هو المقصود وكيف نصل إلى مقصدنا، لكن العجب أن تُترك نصوص الكتاب لآراء الخلق، العجب أن يكون كلام النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-غاية في الوضوح، وأن يكون كلام الله غاية في الوضوح، وسنُسأل نحن: ماذا أجبتم المرسلين؟ وليس ماذا أجبتم أهواءكم وآراءكم وانشقاقاتكم!

إن مجرد غياب قيمة الاجتماع في قلوب الناس هذا كاف أن يكون نوع من أنواع هجر الدين؛ لأن الله أمرنا في كتابه وعلى لسان رسوله-صلَّى الله عليه وسلَّم-بالاجتماع بطرق متعددة.

بل أنه لما ذمّ المنافقين ذمّهم بتباغضهم وتفرّق قلوبهم ولو اجتمعت أجسامهم فقال في حقهم: {تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى}[1] فكيف نلقى الله وقد نهانا ولم نمتثل لهذا النهي {وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ}[2] كيف يكون حالنا بعد هذه الأوامر كلها؟ والنواهي كلها التي تعظم مسألة الاجتماع؟

لقد امتنّ الله على رسوله كما في سورة آل عمران، السورة المقصودة بعد هذه الآيات بقليل، امتنّ على رسوله بلينه للمخاطبين والمخالطين له، وهذا كله ليتحقق الاجتماع، {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ}[3] فانظر كيف أصبح الناس يمارسون الفظاظة على أنها

(1) [سورة الحشر: 14]
(2) [سورة الأنفال: 46]
(3) [سورة آل عمران: 159]

نوع من أنواع إنكار المنكر، ويتركون النصوص الصحيحة ويتأولون ما يشتهون، النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-قال: ((لاَ تَحَاسَدُوا وَلاَ تَنَاجَشُوا وَلاَ تَبَاغَضُوا وَلاَ تَدَابَرُوا وَلاَ يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا. الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يَخْذُلُهُ وَلاَ يَحْقِرُهُ))[1].

ومن المعلوم أن ((الدِّينُ النَّصِيحَةُ))[2]، ومن أعظم النصيحة الحرص على اجتماع المسلمين ((بَشِّرُوا وَلاَ تُنَفِّرُوا وَيَسِّرُوا وَلاَ تُعَسِّرُوا))[3] وتطاوعوا ولا تختلفوا، ((فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ وَاخْتِلاَفُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ))[4] تفهم من هذا كيف ورد النهي عن الخروج عن ولاة الأمر، كيف ورد الأمر بالسمع والطاعة وإن ظلموا وعصوا، إذا ظلموا وعصوا هم، أما إذا أمروك أنت بمعصية ف-لا سمع ولا طاعة ولا خروج ((مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ شِبْرًا فَمَاتَ فَمِيتَةً جَاهِلِيَّةً))[5] وفي الحديث في مسلم: ((اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِمْ مَا حُمِّلُوا وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ))[6].

كل هذا يدلّ على قيمة الاجتماع، يدل على أهميته، منّة من الله أن ألّف بين القلوب لما آمنت، والطريق لهذا واضح في الآية التي بعدها:

{وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ} هل معنى ذلك أن نترك الناس يقولون ما يقولون؟ نحن نقول: اعتصموا بحبل الله، أنت وهم اعتصم بحبل الله، إن هم رفضوا أن يعتصموا؛ يقال لك: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ} ماذا تفعل؟ {يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} إذًا هذه الأمة دورها الدعوة، الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف وليس الافتراق، نريد أن يأتي الجميع فيعتصموا بهذا الحبل، كيف يعتصمون دون أن نرسل لهم داعيًا يدعوهم إلى الاعتصام؟

الله يقول: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ} وهذا بعد الكلام عن الأمر بالاعتصام بحبل الله.

(1) أخرجه البخاري (6064) مختصراً، ومسلم (2564) واللفظ له.
(2) أخرجه مسلم (55)، وأبو داود (4944)، والنسائي (4197)، وأحمد (16942).
(3) أخرجه مسلم (1732).
(4) أخرجه مسلم (1337).
(5) أخرجه البخاري (7143)، ومسلم (1849)، وأحمد (2702).
(6) أخرجه مسلم (1846).

قال الشيخ:

"{وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ} أيها المؤمنون الذين مَنَّ الله عليهم بالإيمان والاعتصام بحبله {أمة} يعني: جماعة. {يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ} وهو اسم جامع لكل ما يقرب إلى الله ويبعد من سخطه.

{وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ} وهو ما عرف بالعقل والشرع حسنه.

{وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} وهو ما عرف بالشرع والعقل قبحه.

وهذا إرشاد من الله للمؤمنين أن يكون منهم جماعة متصدية للدعوة إلى سبيله وإرشاد الخلق إلى دينه، ويدخل في ذلك العلماء المعلمون للدين، والوعاظ الذين يدعون أهل الأديان إلى الدخول في دين الإسلام، ويدعون المنحرفين إلى الاستقامة، والمجاهدون في سبيل الله، والمتصدون لتفقد أحوال الناس وإلزامهم بالشرع كالصلوات الخمس والزكاة والصوم والحج وغير ذلك من شرائع الإسلام، وكتفقد المكاييل والموازين وتفقد أهل الأسواق ومنعهم من الغش والمعاملات الباطلة، وكل هذه الأمور من فروض الكفايات كما تدل عليه الآية الكريمة في قوله: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ}."

والمعنى غاية في الوضوح، المطلوب منكم أن تعتصموا ولا تفترقوا، ومن أجل أن يحصل هذا الاعتصام لابد أن يكون هناك علم وفقه، من أجل أن يحصل الاعتصام بحبل الله، إننا لا نريد أن يعتصم الناس على أحزابهم، ولا على أسمائهم، ولا على قبائلهم، ولا على دنياهم، لا نريد الأحزاب، إنما نريد حبل الله فنكون جميعًا حزب الله، وحزب الله هم الغالبون، ومن أجل تحقيق هذا الأمر لا بد أن يكون حبل الله بيّن واضح لأصحابه، {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ} تفعل هذا وتدل الغافلين ممن ضلّ ومن ابتعد إلى الصراط المستقيم.

قال الشيخ:

" كما تدل عليه الآية الكريمة في قوله: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ} أي: لتكن منكم جماعة يحصل المقصود بهم في هذه الأشياء المذكورة، ومن المعلوم المتقرر أن الأمر بالشيء أمر به وبما لا يتم إلا به فكل ما تتوقف هذه الأشياء عليه فهو مأمور به، كالاستعداد للجهاد بأنواع العدد التي يحصل بها نكاية الأعداء وعز الإسلام، وتعلم العلم الذي يحصل به الدعوة إلى الخير وسائلها ومقاصدها، وبناء

المدارس للإرشاد والعلم، ومساعدة النواب ومعاونتهم على تنفيذ الشرع في الناس بالقول والفعل والمال، وغير ذلك مما تتوقف هذه الأمور عليه."

إذًا معنى ذلك: أن الاعتصام بحبل الله سيكون بعد الحرص على تعليم الناس، والذي سَيَرُدّ الناس لدين الله هو تعليمهم.

قال:

"وهذه الطائفة المستعدة للدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هم خواص المؤمنين؛ ولهذا قال تعالى عنهم: {وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} الفائزون بالمطلوب، الناجون من المرهوب."

فهذا شيء لا يُغفل عنه أبدًا، لو علّمنا الناس التوحيد في الهند وفي المغرب وفي شمال الأرض وجنوبها، ثم اجتمع القوم يحجون فهل يفترقون؟ لا والله لا يفترقون؛ لأنهم جميعًا تعلموا التوحيد، وتعلّموا تعظيم الله وتوقير الرسول، وعرفوا أن المطلوب هو متابعة سنَّة نبيهم لأفعالهم وتوحيد ربهم في اعتقادهم، فتراهم يأتون متلهفين: **ماذا يريد الله؟ بماذا أمرنا؟ ماذا قال لنا الرسول؟ إلى أي شيء دعانا؟**

إن هذا الخير العظيم الذي نجده من وراء التعليم يجمع أهل الأرض جميعًا على حبل الله، والله هو الذي يؤلف بين قلوبهم، إنهم يجتمعون ولا يفترقون والله يؤلف بين القلوب ويبارك في النفوس، فأنت اتبع الأمر ولا تتعداه، ولا تفكر كيف تتألف القلوب، إنما افعل ما أمرت، تنجو وتصل إلى ما وعدك الله.

والأمر جدّ خطير وليس بالهيّن وليس بالثانوي في حياة المسلمين، بل إننا نرى أن المسلمين بدلوا دينهم ورضوا بالفرقة في خاصة شأنهم وفي عامتهم، فإنك لا ترى ناصحًا إنما ترى شامتًا! وإذا نصح أحدٌ أحدًا فإما يسمع لنصحه ويطيع وإما يقاطعه، فالتفكير فيه من الخلل والهوى وتلبيس الباطل بالحق وتلبيس الحق بالباطل ما يجعل الناس لا يستطيعون أن يفكروا كما ينبغي، وتجد العوام يحذرون الغيبة والخواص الذين يسمون أنفسهم خواص–سواء كانوا من طلبة العلم أو المستقيمين–منطلقة ألسنتهم بغيبة إخوانهم! فالله المستعان وعليه التكلان.

قال الشيخ:

"**ثم نهاهم عن التشبه بأهل الكتاب في تفرقهم واختلافهم، فقال: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا}**-وانظر إلى هذا الكلام-**ومن العجائب أن اختلافهم {مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ}**. وهذا هو العجيب: أن اختلافهم أتى بعد ما جاءتهم البينات، البينات توجب ماذا؟

قال الشيخ:

"**الموجبة لعدم التفرّق والاختلاف**"؛ لأن النصوص غاية في الوضوح، وما عليك إلا أن تنكبّ عليها وتدرسها وتزداد علمًا حتى تجد نفسك قد تبيّن لك الأمر.

قال:

"**فهم أولى من غيرهم بالاعتصام بالدين**"، وصَدَق، هم الأولى من غيرهم بالاعتصام بالدين **والسبب:** أنهم يعلمون، "**فعكسوا القضية مع علمهم بمخالفتهم أمر الله، فاستحقوا العقاب البليغ؛ ولهذا قال الله تعالى: {وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}**" نعم، أولئك لهم عذاب عظيم بما كانوا يفعلون، والآخرين قال الله-عزَّ وجلَّ-في حقهم الذين {يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ}، قال الله في حقهم: {وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} نعم إنهم المفلحون، والسبب: انشغال أوقاتهم بالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف، وليس انشغال أوقاتهم بحظوظ أنفسهم وقيل وقال؛ ولذلك مثل هؤلاء جمعوا على أنفسهم أمورًا عظامًا، البعد عن طريق الله، وتصوير النفس بأنها تريد الخير، ثم في نهاية الأمر وجود الأحزاب هذا الخطر العظيم، والعالم الإسلامي ذاق مرّ هذا الخطر، ووقع فيه ما وقع، والسبب كله دائر حول هذه القضية: **عدم الاعتصام بحبل الله (الافتراق)**.

وأكيد أن المقصود هنا ليس ترك الناس يقولون ما يقولون ونجتمع معهم، بل مخاطبة الناس وأمرهم بالمعروف وتعليمهم وتعظيم أمر الله في قلوبهم، وبذل الجهد في بيان الحق حتى إذا وصلوا إلى معرفة الحق شرح الله صدورهم-من كان صادقًا في ذلك-، وصرف أهل الباطل عن هذا الحق العظيم، هذا الحق الذي هو أبلج بيّن واضح، اعرضه.

يأتي الآن أكثر أمر يخيفنا: أن مَن لم يمتثل بهذه الأوامر فيعتصم بحبل الله ولا يتفرق، والذي لا يمتثل وهو ممن عليه أن يمتثل هذا الأمر فيدعو الناس ويرغبهم في الخير ويرشدهم إليه، وينتهي عن الافتراق خصوصًا بعدما جاءهم العلم؛ لأن هؤلاء المفترقين ماذا حصل لهم؟ عرفوا الحق فخرجوا إلى البدع، ابتدع كل قوم طريقة، وتحزبوا، فما ترى إلا الناس قد وزعوا ولاءاتهم وانتماءاتهم فلم يجتمعوا على حبل الله، وهذه الحزبية المقيتة كثير ممن يهرب منها-لأنه لا يمتثل أمر الله-يدخل فيها، وهذا هو المخيف، فيأتي شخص لا يريد أن لا يكون متحزبا مع المتحزبين، فيتحزب هو ضد المتحزبين وهو لا يشعر فيفعل ما فعلوا وأسوأ!

اللهم إنا نبرأ إليك من الأحزاب، ونسألك أن تجعلنا ممن اعتصم بحبلك، فنحن ليس لنا قائد إلى طريقك إلا نبيك-صلَّى الله عليه وسلَّم-ومن تبعه من الصحب والآل وكل من سار على آثارهم، فنحن بهم مقتدون، ونعلم أنهم عن علم وقفوا وببصر نافذ كفّوا، فحرصنا الشديد على متابعتهم ومتابعة من تابعهم، ولا نوالي ولا نبرأ إلا على الطريق المستقيم، فإننا نعلم يقينًا أن من هرب من شيء ولم يعرف تفاصيل هذا الشيء يقع فيه وهو لا يشعر، فإذا هربنا من التحزب لا بد أن نعرف كيف نعتصم بحبل الله، وكيف ندعو الناس ليعتصموا بحبل الله، وكيف لا أخاطب الناس إذا لم تكن معي فأنت ضدي، وكيف يكون في قلبي رحمة لهم وشفقة ومناصحة، وكيف أفرق بين أهل البدع المكفرة والمفسقة الذين اعتلوا بالبدعة وسألوها رأسًا لهم، وبين من لم يهتدِ الطريق ولم يقصد المخالفة ولم يعاند ويشاق الله ورسوله.

ولقد رأينا بالأمس الفرق الشاسع بين الذي يحاج إبراهيم في ربه، وبين من مر على القرية فوقع في قلبه شك كيف يحيي الله الموتى، كيف عامل الله الأول المعاند، وكيف عامل الثاني الذي وقع في قلبه شك والظاهر أنه يريد الحق، فحينما يعامل ربنا الخلق هذه المعاملة لا بد أن نكون أهلًا لأن نسير على ما أمرنا الله به.

إن الأحزاب والانقلابات والمظاهرات ما أخرجت إلا بلاء وراء بلاء، إن السير على منهج الله ومنهج نبيه-صلَّى الله عليه وسلَّم-يوصل الخلق إلى الحق.

انصحوا الخلق، علموهم، ارشدوهم إلى ربهم، سيعتصمون وقتها كلهم بالطريق، سيعتصمون كلهم بحبل الله، وسيتبين لنا العدو من الجاهل

فإذا كونت قاعدة عريضة من الخلق الذين يريدون الحق سترى كيف تكون عطية الله لهؤلاء.

ابن عمر كان في زمن الحجاج يوم أن قصف الحجاج مكة من أجل أن يزيح عبد الله بن الزبير–رضي الله عنه–، ومع ذلك لم يخرج ابن عمر على عبد الملك ولا على الحجاج، وكان يحج معه، إنه الائتمار بأمر الله وليست العواطف والمشاعر، إنه الاعتصام بحبل الله.

فالمقصود أن ما وقع وقع في العالم وانتهى، لا نفكر فيما مضى، ولا نجادل الخلق فيما حصل، ما وقع قدر انتهى أمره، إننا نفكر فيما هو آت:

- **على ماذا نربي أبناءنا؟**
- **ما هي القيم التي يجب علينا أن نظهرها؟**
- **كيف يجب علينا أن نأمرهم بالمعروف وندعوهم إلى الخير؟**
- **نمسكهم بحبل الله فيجتمعوا.**

هذه الدعوة ليست مجرد الدعوة للاجتماع، لو كانت الدعوة فقط للاجتماع سيجتمع الناس على المصالح، ولكن نحن نقول: **اعتصموا بحبل الله، علموا الناس عن الله، علموهم التوحيد،** علموهم ما معنى طاعة لله، إن امتثال أمر الله يجعلني أمتثل أمر الأمير، وإن الانتهاء عن نهي الله يجعلني لا أطيل لساني على الأمير.

يقول أبو الدرداء: "إن أول نفاق المرء طعنه على أميره"! فهذه الاستهانة وعدم الاعتناء وعدم الحرص على قيمة الاجتماع وعلى أسباب الاجتماع سبب ما نحن فيه.

إذًا الاجتماع لا يكون إلا على حبل الله، الاعتصام يكون بحبل الله، نهينا أن نفترق عن حبل الله، أمرنا أن نعتصم بحبل الله، وأمرنا أن تكون هناك أمة تعتني بدعوة الناس إلى الخير لنعتصم جميعا بحبل الله.

فليس هناك حزب وليس هناك انشقاقات، إنما نحن جميعًا معتصمون بحبل الله، فلما تأتي علينا الأحوال تأتي علينا الأوضاع، تتقلب علينا الأمور، نرى الاعتصام بحبل الله يأمرنا بأي شيء؟ كلنا متمسكين بحبل الله إذًا كلنا سنأتمر بأمر الله، إذًا كلنا سننتهي عن ما نهى الله، إذًا كلنا سنكون في حِرْزٍ من الشيطان، إن دعوة الجماعة تحيط بهم، والافتراق مَفسدة بعينه.

وإن أعظم المفسدة وأخطرها هو ما ستسمع الآن:

يقول الله-عزَّ وجلَّ-:

- {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ}
- {أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}، {وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَاب عَظِيم}

متى نرى هؤلاء ونرى هؤلاء؟ {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ}.

قال الشيخ:

"يخبر تعالى عن حال يوم القيامة وما فيه من آثار الجزاء بالعدل والفضل، ويتضمن ذلك الترغيب والترهيب الموجب للخوف والرجاء".

نحن نخاف أن نفعل شيئا على هوانا ونعتقد أنه يوجد شيء في الدنيا ليس محكومًا بأمر الله وإنما هو من منتجات أفكار الخلق.

"فقال: {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ} وهي وجوه أهل السعادة والخير، أهل الائتلاف والاعتصام بحبل الله، هؤلاء الذين ائتلفوا واعتصموا بحبل الله هم الذين ستبيض وجوههم.

{وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ} وهي وجوه أهل الشقاوة والشر، أهل الفرقة والاختلاف، هؤلاء اسودت وجوههم بما في قلوبهم من الخزي والهوان والذلة والفضيحة، وأولئك ابيضت وجوههم، لما في قلوبهم من البهجة والسرور والنعيم والحبور الذي ظهرت آثاره على وجوههم-ويقصد أن ابيضاض الوجه واسوداده إنما هو آثار ما في قلوبهم- **كما قال تعالى: {وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا}**[1] **نضرة في وجوههم وسرورا في قلوبهم".**

قال:

"{فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ} فيقال لهم على وجه التوبيخ والتقريع: {أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ} أي: كيف آثرتم الكفر والضلال على الإيمان والهدى؟".

(1) [سورة الإنسان: 11]

وهذا معنى خطير يعني: أن الأمر أوله أن يفترق الإنسان عن الاعتصام بكتاب الله فيقبل ما تهواه نفسه فيأتي عند أمور فلا يمتثل أمر ربه، وإنما يختار هواه ويرد أمر الله، ينتهي به الحال أن يكون كما قال الله- عزَّ وجلَّ-: "**{أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ} أي كيف آثرتم الكفر والضلال على الإيمان والهدى؟ وكيف تركتم سبيل الرشاد وسلكتم طريق الغي؟**"-وهذه هي طريق أهل البدعة إنهم تركوا الاعتصام بحبل الله وافترقوا فرقًا أخرجتهم عن دين الله، فنعوذ بالله من الضلال-"**{فَذُوقُواْ العذاب بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ} فليس يليق بكم إلا النار، ولا تستحقون إلا الخزي والفضيحة والعار**". والعياذ بالله.

"**{وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ} فيهنؤون أكمل تهنئة ويبشرون أعظم بشارة، وذلك أنهم يبشرون بدخول الجنات ورضى ربهم ورحمته {فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} وإذا كانوا خالدين في الرحمة، فالجنة أثر من آثار رحمته تعالى، فهم خالدون فيها بما فيها من النعيم المقيم والعيش السليم، في جوار أرحم الراحمين**".

إذًا معنى هذا أن من أراد أن يبيض وجهه يوم القيامة وخاف من أن يسود وجهه فعليه بالاعتصام بحبل الله، ويتقي الله، ويبذل جهده ألا يفترق مع جماعته، وألا يكون ممن ركب رأسه في كل أمره، فيجتمع مع جماعة المسلمين، وإذا كان هناك جماعة فلابد لها من ولي، والحمد لله الذي جعل للمسلمين أولياء أمور يصلون بهم إلى المقاصد الأساسية في حياتهم، فإن اشتراط أن يكون ولي الأمر تام الصلاح أو حتى فيه الصلاح هذا شأن مرغوب محبوب، لكن إذا لم يتوفر فأنت مأمور بأمر الله أن تمتثل الأمر وتطيع، فقد قال رسول الله: ((إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً وَأُمُورًا تُنْكِرُونَهَا)) قَالُوا: فَمَا تَأْمُرُنَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: ((أَدُّوا إِلَيْهِمْ حَقَّهُمْ وَسَلُوا اللَّهَ حَقَّكُمْ))[1] إنها ليست عيشة الهوان، بل عيشة الامتثال بأمر الله، وسترى بعد هذه العيشة كيف تبيض وجوه وتسود وجوه.

على كل حال الأمر شائك لا يمكن أن يكون في هذه العجالة شرحه، لكن أنا أنصحكم بقراءة رسالة للشيخ السعدي بعنوان: (الحثّ على اجتماع كلمة المسلمين وذمّ التفرق والاختلاف).

(1) أخرجه البخاري (7052).

أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشرح قلوبنا للحق، وأن يجعلنا ممن فهمه ودان به، وأن لا يجعل هوانا يسبق قبولنا للحق، وأن يجعل هوانا تابعًا للحق، اللهم آمين.

اجعلنا ممن تبيض وجوههم، وأبعدنا عمن اسودت وجوههم، واحفظنا يا كريم من أسباب اسوداد الوجه، وسبب لنا أسباب بياضه يوم أن نلقاك، اللهم آمين.

اللقاء الخامس

تفسير آية 136 من سورة النساء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمده–سبحانه وتعالى–أن حبب إلينا الإيمان ونشكره ونسأله المزيد من هذه النعمة العظيمة، إن الإيمان نعمة الرحمن التي امتنّ بها على خلقه، وتفضّل بها على عباده، وهذه النعمة العظيمة قد هيّأ الله–عزَّ وجلَّ–لها الإنسان، قال تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ}[1] هذا الإيمان العظيم الذي هو أول الواجبات وأهمها له أثر عظيم في بناء الأمم والأفراد، وكل انهيار تجده في الأفراد أو الأمم فإنما سببه فقدان الإيمان، إن كل من عرف حقيقة الإنسان وحاجاتهِ عرف أن الإيمان هو أعلى الحاجات، فإن الإنسان لا يستطيع أن يعايش الحياة ويصارع الأحداث التي تدور حوله دون أن يكون له معتقد يعيش عليه والمعتقد الذي يعيش عليه الإنسان يسبب له السلوك، المعتقد هو الذي يسبب السلوك، فإذا صحّ معتقده، صحّ سلوكه، وإذا فسد معتقده، أصبح متخبّطًا، قد يصلح بعض سلوكه وقد لا يصلح {أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ }[2] إذًا هذه سلوكيات عبد فقد الإيمان؛ ولهذا في المقابل {فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ}[3] إذًا الإيمان يولد الرحمة، إذا صحت العقيدة ارتبط السلوك ارتباطًا مباشرًا بهذه العقيدة، فالمعنى: **أن الإيمان هو الأساس الذي تصلح به أديان الخلق وحياتهم**، وأي تقصير تراه في سلوك الخلق فإنما مبدأه ضعف الإيمان، ولا يغرك أن هناك خلق صح منهم السلوك مع عدم صحة الإيمان، فإن مسالك الخلق لا تصح كلها ولا تحسن كلها ولا تكون طيبة إلا مع الإيمان.

ولهذا سيكون لقاؤنا–إن شاء الله–اليوم حول آية عظيمة يخاطب بها المؤمنين، قبل أن يخاطب بها غيرهم:

(1) [سورة التين: 4-6]
(2) [سورة الماعون: 2-3]
(3) [سورة البلد: 11-13]

بسم الله الرحمن الرحيم

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (136)}

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} إذًا الخطاب للمؤمنين.

{آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ} فهذا أمْر للمؤمنين بالإيمان، مع كونهم مؤمنين، سنفهم كيف يكونون مؤمنين ويؤمرون بالإيمان. ويقول الله-عزَّ وجلَّ-: {وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا} ونرى كيف كانت بداية الآية الإيمان بثلاثة أمور: الإيمان بالله والرسول والكتاب-الذي هو من جملة الكتب-، ثم لما أشار الله-عزَّ وجلَّ-إلى الكفر، أصبحت خمسة أمور: ومن يكفر بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر.

وسنرى من خلال المناقشة وقراءة كلام الشيخ السعدي رحمه الله ما علينا أن نفهمه من هذه الآية.

بدأ الخطاب: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، كيف يكونون مؤمنين ويخاطَبون بالأمر بالإيمان؟!

قال الشيخ السعدي:

"اعلم أنّ الأمر إما أن يوجه إلى من لم يدخل في الشيء ولم يتصف بشيء منه، فهذا يكون أمرًا له في الدخول فيه، وذلك كأمر من ليس بمؤمن بالإيمان، كقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ} الآية".

فإذًا الأمر يوجه إلى من لم يدخل في الشيء، أو لم يتصف به، فيكون معنى الأمر هنا: افعل ما لم تكن فعلته، تأمره بأمر معناه افعل شيء لم تكن فعلته قبل، هذا المتعارف عليه، إذًا يقال: "آمن" لمن لم يؤمن.

قال الشيخ:

"وإما أن يوجه إلى من دخل في الشيء". معناه: أن هذا الشخص قد امتثل الأمر أولًا، ثم أعيد عليه فأمره بنفس الأمر، فما فائدة هذا النوع من الأمر؟

يقول: "**فهذا يكون أمره**-من أجل أي شيء؟-**ليصحح ما وجد منه**".

"**ليصحِّح ما وجد منه**" هذا أولا، يعني هنا أُمرنا بالإيمان {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا} إذًا هذا الإيمان مطلوب منا أن نصححه، نصحح ما وجد من هذا الإيمان.

يقول: "**ويحصّل ما لم يوجد**"

1-الأمر الأول: يؤمر الإنسان بأمر هو قد امتثله ليصحح مسلكه في هذا الأمر.

2-الأمر الثاني: لكي يحصل منه الأمر الذي لم يحصل، أو يُحصِّل الشيء الذي لم يوجد، فإن أمر الايمان واسع فإذا قيل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا} إذًا أمرنا بتصحيح ما وجد منّا من إيمان وأمرنا أن نحصِّل ما نقص من هذا الإيمان، ما لم يوجد من هذا الإيمان.

إذًا يا أيها المؤمنون عليكم أن تؤمنوا، عليكم أن تصحِّحوا مساركم في الإيمان، لا تقنعوا بما معكم إنما اجتهدوا في زيادة هذا الإيمان وتحصيله، حصِّلوا ما لم يوجد من الإيمان.

قال الشيخ:

"**ومنه ما ذكره الله في هذه الآية من أمر المؤمنين بالإيمان**". يعني هذا النوع الثاني هو المقصود.

إذًا ملخص ما مضى: أن الأوامر عندما يؤمر بها أي أحد إما يقصد أن:

1- يؤمر بشيء لم يكن داخلًا فيه.
2- يؤمر بأن يكمِّل ما هو داخل فيه.

إما يؤمر بما لم يكن داخلًا فيه، لم يكن مؤمنًا فنقول له: "آمِن" أو يؤمر بشيء قد دخل فيه. والثاني هو المقصود بالآية أنت مؤمن تؤمر أن تؤمن، فكيف أؤمن وأنا مؤمن؟

نقول: نعم، صحِّح ما وجد من إيمان عندك، حصِّل ما لم يوجد من الإيمان، فهذا أمر عظيم لتفتيش الإيمان، وبنفس هذا الفهم ندعو كل يوم ربّنا: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}، يا رب اهدنا الصراط وثبّتنا عليه واجعلنا نكمل لوازمه واصرف عنا صوارفه، فهذا كله يفهم بنفس المعنى.

قال:

"فإن ذلك يقتضي أمرهم بما يصحِّح إيمانهم من الإخلاص والصدق، وتجنب المفسدات والتوبة من جميع المنقصات" ويقتضي أيضًا الأمر بما لم يوجد من المؤمن من علوم الإيمان وأعماله، فإنه كلما وصل إليه نص وفهم معناه واعتقده فإن ذلك من الإيمان المأمور به.

قال الشيخ:

"ومنه ما ذكره الله في هذه الآية من أمر المؤمنين بالإيمان-أي من النوع الثاني-**فإن ذلك يقتضي أمرهم بما يصحح إيمانهم** -ماذا نفعل لنصحح إيماننا؟- **من الإخلاص والصدق"**.

يعني: لما قال لنا ربنا: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا} إذًا هذا يقتضي أمرنا بتصحيح إيماننا، كيف نصحح إيماننا يا ربنا؟ ما هو تصحيح الإيمان؟

ما سمعته في القرآن من الأمر بالإخلاص والصدق، صحِّح إيمانك بالتفتيش في أعمالك من تريد بها؟ من تريد بأعمالك؟ ما الذي بعثك على هذه الأعمال؟ هل أنت صادق في إرادة وجه الله؟ هل أنت صادق في حب رضا الله؟ هل أنت تسعى من أجل طلب رضاه؟

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ}: يا أيها الذين آمنوا فتِّشوا في نفوسكم عن الإخلاص، فتِّشوا في نفوسكم عن الصدق وبواعثه، هل الذي يبعثنا على الإيمان، هل الذي يبعثنا على الأعمال، هل الذي يبعثنا على الأقوال التي ترضي الله هو طلب رضا الله؟ أم أنها العادات والإلف؟ أم أنها ما عشنا عليه؟

لابد أن نحرِّر ونحرِّك قلوبنا عند كل عمل نعمله، لا تظنّ هذا تكليف بما لا يطاق، إنك أمام أمر صريح.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ} فتِّش عن إخلاصك، فتِّش عن صدقك.

أما **الصدق** ففكر في بواعث العمل، ما الذي يجعلك تتحرك للعمل؟ ما الذي يبعثك؟ بماذا تفكر؟ هل لقاء الله والدار الاخرة على بالك؟ هل تشعر بقرب الله؟ وتشعر باطلاعه عليك؟ هل أنت تسارع في طلب رضاه في كل موقف من المواقف؟ ما مقدار إلحاحك عليه بالقبول؟

يا أيها **المخلص** الذي لا تريد إلا أن ينظر الله اليك فيقبلك كم مرة ألححت على الله بالقبول؟ كم مرة اعتصر قلبك خوفًا من الردّ؟ كم مرة خلال العمل فتَّشت في نفسك كم حرصك على ألا يداخل حب ثناء الناس على حب ثناء الله؟ هل أنت فقط تريد ثناء الله أم اختلط الأمر عليك فوقع في قلبك الميل إليه؟ كم مرة جاهدت فطردت؟

إذًا معنى هذا: أن الذين آمنوا بالله اشتدّ حرصهم على الإخلاص، اشتدّ حرصهم على الصدق، وهذا **مورده العظيم معرفة الله والاستعداد للقائه**، المورد الذي تغذّي به صدقك وإخلاصك هو إيمانك بكمال صفات الله وإيمانك يقينًا بلقاه.

إذًا صحِّح إيمانك بالصدق والإخلاص وتجنب المفسدات-**كما قال الشيخ-**: **"وتجنب المفسدات، والتوبة من جميع المنقصات"**.

إذًا هذه أمور أربعة:

1- صحِّح إيمانك بالتفتيش عن الإخلاص في وقت العمل فكر أنت تريد رضا من، في وقت العمل كم ألححت عليه بالقبول، كم هو خوفك من الرد؟
2- ما الذي يبعثك على العمل؟ فكر في صدقك، هل أنت صادق الذي بعثك على العمل هو طلب رضاه؟
3- تجنب المفسدات، في كل عمل مفسدات، الخلق يفسدون عليك عملك، الشيطان يفسد عليك عملك، هوى نفسك يفسد عملك، فإذا وقعت هات الرابعة:
4- التوبة من جميع المنقصات.

فهو كلام عظيم يحتاج إلى عناية.

يقول–مرة أخرى–:

"ومنه ما ذكره الله في هذه الآية من أمر المؤمنين بالإيمان–أي: من النوع الثاني–**فإن هذا يقتضي أمرهم بما يصحح إيمانهم، من الإخلاص والصدق، وتجنب المفسدات، والتوبة من جميع المنقصات".**

إذن هذا أول شيء يقتضيه الأمر بالإيمان.

الأمر الثاني يقول: **"ويقتضي أيضًا الأمر بما لم يوجد من المؤمن من علوم الإيمان وأعماله".**

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا} يعني هذه أمور ناقصة فيك يا أيها المؤمن يجب عليك أن تكملها، ما هي هذه الامور؟ **يقول: "من علوم الإيمان وأعماله".** الإيمان له علوم عليك أن تتعلمها، يأتيك بالتفصيل **فيقول: "فإنه كلما وصل إليه نص، وفهم معناه واعتقده، فإن ذلك من الإيمان المأمور به".**

فإذًا نفصل أولًا في هذا النوع الثاني إذا سمعت {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا}، إذًا تقتضي أن تؤمن بمعنى تتعلم من الإيمان ومن أعماله ما لم يوجد عندك، ومجمل هذا بأن يصل إليك نص تتعلمه، يعني: أنت تقرأ في كتاب الله أو في سنَّة النبي–صلَّى الله عليه وسلَّم–فتفهم هذا النص تفهم معناه وتعتقده فإن هذا من الإيمان المأمور به.

نضرب مثالًا على ما تدارسناه أمس معًا: هذا مؤمن معه–الحمد لله–إيمان، ولم يكن يعلم أن الاجتماع من أوامر الإيمان، وأنه يأتي بعد الإيمان والتوحيد مباشرة الأمر بالاجتماع، وأنه من خصائص المؤمنين، وأن المؤمنين حريصون على الاجتماع وأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويعلمون الناس بالخير ليجتمعوا جميعًا بالتمسك بحبل الله لا تحت حزب ولا تحت راية غير راية الإسلام، يقودهم في ذلك النبي –صلَّى الله عليه وسلَّم–، كان مؤمنًا معه إيمان لكن لم يكن يعرف هذه المسألة، ولم يكن يعرف أن الاجتماع من اللوازم وأنه من الأوامر وأن عدم التفرّق والحرص على عدم التفرّق يدلّ على الإيمان، لم يكن يعرف هذا الشيء، فلما عرفه واعتقده، يكون قد ائتمر بقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا} لقد ائتمر بهذا الأمر، سمع النص وفهمه واعتقده، فهذا من الإيمان المأمور به الداخل في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا}.

وأيضًا يقول: **"وكذلك سائر الأعمال الظاهرة والباطنة، كلها من الإيمان"**. فهذا العبد لم يكن يعرف عمل من أعمال الإيمان، فعندما تعلمه واعتقده واعتنى به وقام به، فقد ائتمر بقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا} إذًا معنى هذا أن هنا أمرين تحت النوع الثاني:

إذا كان المؤمن مأمورًا بالإيمان فأحد معاني الأمر بالإيمان أن يكون المؤمن فيه نقص في علوم أو أعمال للإيمان:

- فإذا كانت علوم يقبلها ويعتقدها فيكون بذلك امتثل أمر {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا}.

- وإذا كانت أعمال إذًا وقتما يتعلمها ويعمل بها فقد امتثل بهذا الأمر.

إذًا إلى هنا عندي نوعين يدخلان تحت قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ}:

النوع الأول: يقتضي تصحيح الإيمان، الإيمان الذي معك صححه، عندك علوم تعرفها، عندك أعمال تقوم بها، المفروض فيها أن تفعل أربعة أمور للتصحيح:

1. التفتيش عن إخلاصك.
2. وصدقك.
3. وتجنب المفسدات.
4. والتوبة من جميع المنقصات.

هذا على ما كنت تعمل أصلًا وتعتقد.

فأنت تعلم أن الله أمرك بالتوكل وتعرف ما هو التوكل فماذا تفعل؟ مارِس التوكل، اعتقد أن الله مستحقّ لأن تتوكل عليه، اكتفِ به، كن صادقًا في توكلك ولا يوجد في قلبك شك، لا تتوكل من أجل أن يراك الناس متوكلا، تجنب المفسدات، وإذا وقعت فيما يفسد، عليك بالمسارعة إلى التوبة، هذا النوع الأول يدخل تحت {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا}.

يأتي النوع الثاني: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا} بمعنى فيكم من نقص العلم وفيكم من نقص العمل ما يستوجب أن تزيدوا علمكم وعملكم، فتعلموا وافهموا واعتقدوا ما تتعلمونه، واعملوا الأعمال الظاهرة

والباطنة التي تزيدكم إيمانًا وتدخلكم مع المؤمنين، وهذا معناه أن الإيمان مطلوب منا الحرص على زيادته، العناية به وزيادته، العناية به أولًا ثم زيادته ثانيا، صحح إيمانك وزد إيمانك بالعلوم والأعمال، صحح ما كنت تقوم به وزده.

يأتي الأمر الثالث: الذي هو من مقتضيات هذا الأمر وهذا يربطنا بآية أمس-التي كنا نناقشها-**يقول**: **"ثم الاستمرار على ذلك، والثبات عليه إلى الممات، كما قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ}"**.

إذًا من مقتضيات هذه الآية {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ}: الاستمرار، الثبات على علوم الإيمان وزيادتها وتصحيحها، وعلى أعمال الإيمان تصحيحها وزيادتها، إذًا عليك أن تعتني بعلوم الإيمان وأعمال الإيمان تصحيحًا وزيادة واستمر على ذلك استمر لا تتوقف، ومن عاش على شيء مات عليه، كما سمعنا أمس في كلام الشيخ حول هذه الآية، أنت لا تستطيع أن تموت على الإسلام إلا إذا وفّقك الله، والله-عزَّ وجلَّ-يوفّق من؟ يوفّق من كان مستمرًا، إن من عاش على شيء مات عليه.

إذًا خرجنا بثلاث مقتضيات في هذا الأمر {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ} ماذا نفعل؟ مقتضى هذا الأمر ثلاثة أمور:

1. تصحيح الإيمان.
2. نزيد ما عندنا من إيمان.
3. نحافظ ونستمر ونثبت على ما معنا من إيمان.

وهذا الآن سيتبين لنا من خلال ما أمرنا أن نؤمن به، **يقول**:

"وأمر هنا بالإيمان به -سبحانه وتعالى-وبرسوله، وبالقرآن وبالكتب المتقدمة، فهذا كله من الإيمان الواجب الذي لا يكون العبد مؤمنا إلا به، إجمالا فيما لم يصل إليه تفصيله وتفصيلا فيما علم من ذلك بالتفصيل، فمن آمن هذا الإيمان المأمور به، فقد اهتدى وأنجح".

ونأتي هنا إلى التفصيل من أجل أن نفهم ماذا يقصد بكلمة **"إجمالا فيما لم يصل إليه تفصيله وتفصيلا فيما علم من ذلك بالتفصيل"**.

أولًا ما هو المطلوب منا أن نؤمن به؟ ثلاثة أمور:

1- الإيمان بالله.
2- الإيمان بالرسول.
3- الإيمان بالكتاب.

وهذه الثلاثة هي أصول الإيمان، فإن من آمن بهذه الثلاثة فقد آمن. وبقية أركان الإيمان؟ سيتبين لنا كيف أن هذه الثلاثة تضمَّنت الباقي.

نبدأ بالكلام حول الإيمان بالله:

ماذا يراد بالإيمان بالله؟-وهذا من الإيمان الواجب-الإيمان بالله المقصود به الإيمان بكمال جلاله وعظمته، ويكون بما يعرفه الإنسان عن صفات ربه، فالإيمان الواجب هو إيمانك بما وصلك من أسماء الله-عزَّ وجلَّ-وصفاته وأفعاله، فتؤمن بها، وتتيقن، ويكون إيمانك بها تصديقًا بالقلب وقول باللسان ولابد من أثر ذلك وهو عمل بالجوارح في كل ما يمكن أن يكون عملًا بالجوارح.

وإيمانك بالرسول معناه:

أنك تؤمن أن الله أرسل الرسول وأن الطريق ليس إلا من طريق الرسول، فتقع منك طاعة الله بطاعة الرسول وترى كل طريق يوصل إلى الله مغلق والطريق الوحيد المفتوح لرضاه هو متابعة سَّنة النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-، فيكون علمك بسنَّة النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-عِلم مَن آمن أن الرسول هو قائده إلى ربه وهو الذي يحمل الراية واللواء، فعينك وأنت تسير في الطريق المستقيم إنما هو على راية النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-، لا تزِغ عينك عن راية النبي، فكل يوم لك شأن مع النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-، كل يوم لك شأن تقلب أحواله-صلَّى الله عليه وسلَّم-وترى رايته لتطمئن أنك على الطريق المستقيم، فمن أشقى من عبد قيل له: "قائدك النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-" وهو يخالفه؟!

فلذلك تعلُّم حال النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-من خلال أحاديثه التي وردت عنه أمر من لوازم الإيمان؛ ولذلك الفلاسفة الذين خرجوا شرقًا وغربًا مأجورين مدفوع لهم أموال من أجل أن يشككوا المسلمين في دينهم لا تراهم إلا يقدحون في البخاري ومسلم، ولا تراهم إلا يقدحون في أبي هريرة-رضي الله عنه-ومن أكثر مثله الأحاديث، ما أن تسمع هذا الشغب إلا تعرف حقيقة الأمر إن الإيمان بالرسول من أركان الايمان بل لو نظرت إليه من جهة أخرى ستجد أن الدين مجموع في هذه الثلاثة أمور: (الإيمان بالله، وبالرسول، وبالكتاب) وتجد بقية أركان الإيمان والإسلام والأعمال وكل شيء وراء هذه الثلاثة، فإذا استطاعوا أن يشككوا في سنَّة النبي فقد بلغوا ما يريدون، فلا تسمع لرجل تجرأ فطعن في سنَّة النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-، وهذا الكتاب محفوظ وهذا الدين محفوظ.

إن الله علَّم نبيه القرآن وعلَّم له بيان القرآن، فلما علمه بيان القرآن كانت الحكمة على لسان رسولنا-صلَّى الله عليه وسلَّم-، فلا يكون منا حكمة أن نترك سنَّة النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-فلا ترى معتنيًا بها وترى مثل هؤلاء يتطاولون عليها وعلى رجالها، إن الله كما قيض كبار الصحابة لحفظ القرآن قيض الرجال المخلصين في القرون المفضلة لحفظ السنَّة، وإن على سنَّة النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-لنور، يعرفه من اعتاد أن يقرأ أحاديث النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-، فلا يشغلك هذا الشغب عن سنَّة النبي بل اتهم من يتهم هذه الكتب التي يسّر الله فيها جمع أحاديث النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-وسنَّته، لكن العيب على من كان أجيرًا لأهل الكفر والنفاق، فإذا آمنت بالله وبأسمائه وصفاته وأفعاله وآمنت بالرسول أنه قائدك الذي يرشدك في هذا السفر العظيم إلى الطريق الذي يرضي الله، فكان عليك أن تؤمن بكتاب الله الذي تكلم به الله ونزل على قلب رسول الله وحفظه الله ووصلنا محفوظًا كما تلاه رسول الله على صحابته رضوان الله عليهم.

الإيمان بالكتاب:

عظموا القرآن حق التعظيم واتلوه حق التلاوة ولا تكن ممن انشغل عن القرآن، وأحيانًا ينشغل بعض الناس عن القرآن بالقرآن-وهذه حيلة شيطانية-فينشغل بعض الناس بالقرآن عن القرآن، فينظر للقرآن ليحقق أهدافًا لا تزيد الإيمان، فتراه يترك المعنى ويشدد على نفسه في الحرف، وتراه يترك الفهم ويسارع للبروز بين الخلق بإجازات أو بأمور يثني عليه الخلق بها، لا تنشغل عن القرآن بالقرآن، فإن الشيطان لما

وجد الناس مقبلين على كتاب الله شغلهم عن القرآن، وهذا الأمر من العجائب أن تجد الناس مشغولين عن كتاب الله، فلا يصلون إلى ما يريد الله، إنما يبحثون بعيدًا عن كتاب الله في كتاب الله.

لابن العربي جملة عظيمة يقول فيها: "**إن إبليس حين لم يستطع أن يشغل الناس عن القرآن شغلهم به عنه**"!. أي: جعل الناس يشتغلون بشيء في القرآن لا ينفعهم في معادهم، فترى المبالغة في أمور ثم لا تجد فهمًا ولا زيادة إيمان، فكن حذرًا من وسائل الشيطان.

وإيمانك بالكتاب يلزمك بالإيمان بالكتب التي سبقت، وهذا يجعل قلوبنا في غاية من الارتباط بأنبياء الله، فأنت كما تؤمن بالقرآن وأن الله أنزله كذلك تؤمن بالتوراة والإنجيل أنها نزلت من عند الله، وأن القوم حرفوها، لكن في الأصل التوراة كتاب من كتب الله والإنجيل كتاب من كتب الله، فنؤمن بهذه الكتب.

فإذًا أصبحت قاعدة إيمانك هي الإيمان بالله، وضلعي هذا الإيمان هما الإيمان بالرسل والإيمان بالكتب، تؤمن بالنبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-وبالأنبياء قبله وتؤمن بكتابنا الذي هو القرآن وبالكتب قبله.

يقول الله-عزَّ وجلَّ-: {وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا} **ما علاقة هذه الأمور بما مضى؟**

الأمر واضح: أما الإيمان بالله والكتب والرسل فقد ذكر، وضد الإيمان: الكفر، فمن آمن بالله والكتاب فقد آمن، ومن كفر فقد ضلّ ضلالًا بعيدًا، لكن السؤال: والملائكة؟ واليوم الآخر؟ لماذا أتوا في الكفر ولم يأتوا في الإيمان؟ الأمر-الحمد لله-واضح، فإن مَن آمن بالله وبالرسول وبالكتاب فقد آمن بكل الأخبار التي في الكتاب والتي أتت على لسان الرسول، أما مَن كفر فقد يكون كفرَ بشيء من الأخبار التي وردت في الكتاب.

مرة أخرى: الإيمان بالله وبالرسل وبالكتاب متى حصل فقد حصل الإيمان بالملائكة واليوم الآخر لا محالة، لكن ربما يدعي إنسان أنه يؤمن بالله وبالرسل وبالكتب ثم ماذا يفعل؟ ينكر الملائكة، أو ينكر اليوم الآخر، وهذا أمر موجود في فِرق-لا كثرها الله-من هذه الفِرق مثلًا: فرقة نصرانية تؤمن بنبوة

الأنبياء وتؤمن بالله واحدًا وتؤمن بكتب الله، وإن كانت لا تؤمن بالقرآن لكن تؤمن بالكتب التي قبل القرآن يعني بالتوراة والإنجيل، لكنهم ينكرون يوم القيامة! ويقولون: "الإنسان كالحيوان إذا مات انتهى أمره!" لماذا تدينون بالدين؟ يدينون بالدين لصلاح دنياهم، وهذه الفرقة إنما هي من آثار اليهودية، لكن أنا أقصد بالمثال أن تتصور أن هناك مَن يؤمن بالله والكتب والرسل ثم ينكر اليوم الآخر، ومثله إنكار الملائكة، وقد وقع في العالم الإسلامي أن فرق خرجت من أصول غير مسلمة، مجوسية وغيرها، زعمت أن الآيات الواردة في الملائكة وفي اليوم الأخر محمولة على التأويل فهذا موجود.

فالمقصود أن مَن آمن بالله والكتب والرسل فقد أتى بالإيمان، لابد أن يكون مؤمن بكل شيء فيها، لكن قد يكون الإنسان يدعي أنه مؤمن بهذه الأمور الثلاثة ثم يأتي فيكفر بأخبار في الكتاب أخبر بها الله وأخبر بها الرسول ربما كان هذا على وجه أنه يقول: يتأوَّل ذلك يعني هذا ليس معناه كما قلتم إنما معناه كذا وكذا.

فالمطلوب من المؤمن أن يحفظ إيمانه، ويطلب من الله الثبات، ويخشى من الدعوات، إن الفِرق التي ابتدعت عقائد ومفاهيم أصل خللها أنها اعتقدت اعتقادات باطلة ثم استدلت عليها كما تريد بهواها، لكن أنت أيها المؤمن **اجعل القرآن نصب عينيك، اعرف الله من القرآن، وابذل جهدك أن تتعلمه فتزيد إيمانًا**، وفي كل شأن من شؤونك اسأل: هذا ماذا يجب عليَّ أن أفعل فيه؟ فستجد القرآن يجيبك والسنَّة تجيبك.

فتمسّك بهذا الحبل واعتصم به واعلم أن الاخبار حولنا تكاد تهلكنا كل يوم تسمع عن فرقة انشقت، وبدعة ابتدعت، وأمر يتكلمون فيه ما أنزل الله به من سلطان، فلا تكن عرضة للنفاق لا تكن عرضة للكفر.

هذه آية واحدة {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ} كن على حذر، تمسّك بالكتاب واعرف الله وتعلم عن النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-، واسأل الله دائمًا الثبات، فمن ثبته الله نجى من الفتن.

إن الإيمان أعزّ ما نملك، فاحرص على تصحيحه وعلى زيادته وعلى طلب الاستمرار فيه.

إن الإيمان أخطر أمر يمكن أن يتعرض الإنسان فيه للهلاك؛ لأن إيمان العبد لو هلك هلك العبد!

نسأل الله-عزَّ وجلَّ-بمنّه وكرمه كما ابتدأنا بمنّة الإيمان أن يحفظه علينا وعلى ذرارينا، وأن لا نكون من أولئك القوم الذين أهملوا الإيمان فقطع الله عنهم سبيله، نعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، نعوذ بالله مما يقوله السفهاء، نعوذ بالله من الافتراق بعد معرفة الحق، نعوذ بالله أن نكون ممن استغنى، وترك التذلل لله بطلب الثبات على هذا الدين العظيم، أسأل الله بمنّه وكرمه ونحن في هذا الشهر العظيم أن ينزل على قلوبنا الايمان والمسلمين وأن يخرجنا من الفتن وأن ينجينا منها ما ظهر منها وما بطن.

إن الإيمان مسؤولية الإنسان مع نفسه ومسؤوليته مع ذراريه، لا تعطي نفسك ختم الايمان {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ} آمِن، عليك أن تؤمن، عليك أن تحرص على الإيمان، عليك أن تفتش إيمانك، عليك أن تصححه، عليك أن تزيده، عليك أن تطلب الثبات.

خرجنا بهذه الثلاث المهمات:

1. **صحح إيمانك.**
2. **زد إيمانك بالعلم.**
3. **استمر على الايمان بطلب الثبات.**

اللهم ثبتنا على دينك، ثبتنا على دينك، ثبتنا على دينك وأحسن لنا الخواتيم، اللهم آمين.

اللقاء السادس

تفسير الآيات 20-26 من سورة المائدة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحن نلتقي بفضل الله وبمنّته علينا في لقائنا السادس من ضمن لقاءات هذا الشهر المبارك.

وآياتنا اليوم من **سورة عظيمة وهي سورة المائدة، التي تسمّى: سورة العقود**، وفيها من ذكر العهود والعقود الشيء الكثير.

ونختار اليوم الكلام عن موقف بني إسرائيل مع موسى-عليه السلام-، وكيف أنهم خالفوا العهد والوعد ونقضوه، وما كان منهم من ضعف إيمان، وكيف عاملهم الله-عزَّ وجلَّ-المعاملة التي تليق بهم؛ وقد ذكر الله في الآية (12) من هذه السورة أنه أخذ الميثاق من بني إسرائيل فقال تعالى: {وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (12)}[1] إلى آخر الآيات، فهذا دليل على **أنّ الله-عزَّ وجلَّ-أخذ منهم الميثاق**.

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (20) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (21) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (22) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (23) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا ۖ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (24) قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ۖ فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (25) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ۗ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (26)}[2]

وفي الآيات السابقة كان موقف من مواقفهم مع الميثاق، والله-عزَّ وجلَّ-يخبرنا عن حالهم في أحد **المواثيق**:

(1) [سورة المائدة: 12]

(2) [سورة المائدة: 20-26]

قال-سبحانه وتعالى-: {وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (20)}. يذكرهم بنعم الله-عزَّ وجلَّ-: {يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ} وعدَّ لهم النعم:

{إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ} هذه نعمة.

{وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا} سنرى ما معنى ملوكًا.

{وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ} بمعنى أنه أعطاهم أي شيء؟ هذا سيكون سؤالنا: ماذا أعطاهم مما لم يؤت أحدًا من العالمين؟

لمَّا ذكرهم النعمة، ماذا أراد منهم؟ قال: {يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ} أمرهم أن يدخلوا الأرض المقدسة.

{الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ} ما معنى أن الله كتبها لهم؟

{وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ} ماذا يحصل لكم لو ارتدتم على أدباركم؟

{فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ} بعدما ذكّرهم بالنعمة وأمرهم بالأمر ماذا فعل بني إسرائيل؟

{قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ} إن الأرض المقدسة التي تريد منَّا أن ندخل فيها، فيها قومًا جبارين.

{وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا} أي: لن نقاتلهم فندخلها إلا إذا خرجوا منها. معنى ذلك أنهم خرجوا منها بسبب غير سبب قتالهم.

{فَإِنَّا دَاخِلُونَ} إذا حصل هذا فإنا داخلون، فردّ عليهم رجلان:

{قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا} ما صفة هذان الرجلان؟ يخافون، أنعم الله عليها بأي شيء؟ سنرى...

{ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ} يصفون لهم حال لو فعلوها سيكونون هم الغالبون.

{وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} هذا كلام الرجلان، فموسى-عليه السلام-حضهم، والرجلين أيضًا قاموا بنفس الفعل، ردّهم الآن:

{قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا} تحقيقًا، أي: مدة حياتنا لن ندخلها، هناك قالوا: (لن) للتأبيد وهنا أعادوا هذا التأبيد.

{فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ} فما كان من موسى-عليه السلام-إلا أن توجّه لربه:

{قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ۖ فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ}، قال الله-عزَّ وجلَّ-:

{قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ۗ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ}.

هذه **عهود وعقود** بينهم وبين الله وهذا **جزاء من لا يفي بالعهد والعقد** في سورة العقود، يعني هذا الخبر سمعته عن بني إسرائيل في سورة العقود؛ ليبيّن لك **كيف يعامل الله-عزَّ وجلَّ-مَن نقض عهده**.

ونجيب على الأسئلة التي ظهرت لنا خلال قراءة الآيات من كلام السعدي-رحمه الله-ونقف على بعض الفوائد المهمة في تفسير هذه الآيات.

قراءة تفسير الآيات من تفسير السعدي والتعليق عليها:

قال:

"لما امتنّ الله على موسى وقومه بنجاتهم من فرعون وقومه وأَسْرهم واستبعادهم، ذهبوا قاصدين لأوطانهم ومساكنهم، وهي بيت المقدس" التي كان فيها أجدادهم: يعقوب-عليه السلام-وبنيه.

وما حواليه، وقاربوا وصول بيت المقدس، وكان الله قد فرض عليهم جهاد عدوهم ليخرجوه من ديارهم". والمعنى أن هذا فرض واجب عليهم خصوصًا أنهم يعلمون أن الله امتنّ عليهم بالمنن العظيمة، فكيف لا يأتمرون بالأمر؟!

قال: **"فوعظهم موسى-عليه السلام-؛ وذكّرهم ليقدموا على الجهاد فقال لهم: {اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ}"**. كيف يذكرون نعمة الله عليهم؟

قال الشيخ: **"بقلوبكم وألسنتكم**-العبد يذكر نعمة الله بقلبه ولسانه-**فإن ذكرها**-ذكر النعم-**داع إلى محبته تعالى، ومنشط على العبادة"**.

إذًا اذكروا نعمة الله عليكم، وهذا كلام يخاطب موسى بني إسرائيل به وكل من يصلح له الخطاب يخاطب به، اذكروا دائمًا نعمة الله عليكم، اذكروها بقلوبكم وألسنتكم، وليذكِّر بعضكم بعضًا، فإنّ هذا أثره سيكون داع لمحبة الله، ومنشط الإنسان لعبادة الله، أما النعم التي تخص بني إسرائيل فقال:

{إذ جعل فيكم أنبياء}، ماذا يفعلون؟ **قال:**

1- **"يدعونكم إلى الهدى.**
2- **يحذرونكم من الردى.**
3- **ويحثونكم على سعادتكم الأبدية.**
4- **ويعلمونكم ما لم تكونوا تعلمون".**

إذًا هذه المصلحة **من وجود الأنبياء ومن تبعهم**، فإنهم للأمم يدعون إلى الهدى ويحذرون من الردى ويحثون على السعادة الأبدية ويعلمون الناس ما لم يكونوا يعلمون، فهذه نعمة عظيمة ونستشعرها **وقتما نصلي على نبينا -صلَّى الله عليه وسلَّم-وعلى جميع الأنبياء**، وإيماننا بالنبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-وبجميع الأنبياء:

- يجعلنا نقدر لهم قدرهم.
- ونعرف لهم سابقتهم.

ولهذا يكون النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم؛ لما له عليهم من فضل ومنَّة، ميَّزه الله وجعل له المكانة، فكانت هذه أول نعمة ذكَّر موسى بها بني إسرائيل. النعمة الثانية:

{وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا} ما معنى (جعلوكم ملوكا)؟ **قال**:

"{وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا} تملكون أمركم، بحيث إنه زال عنكم استعباد عدوكم لكم، فكنتم تملكون أمركم، وتتمكنون من إقامة دينكم".

أي: تملكون شأن أنفسكم ولستم عبيدًا يتحكم فيكم غيركم، وخروجكم من أرض مصر من عند الفراعنة الذين تسلطوا عليكم زمنًا طويلًا نعمة من الله تجعلكم أشدّ الناس شكرًا، ثم ذكرهم **فقال**:

"{وَآتَاكُمْ} من النعم الدينية والدنيوية {مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ}، فإنهم في ذلك الزمان خيرة الخلق، وأكرمهم على الله تعالى. وقد أنعم عليهم بنعم ما كانت لغيرهم".

في ذلك الزمان أنعم الله عليهم بأن جعلهم خيرة الخلق، لكن ماذا فعلوا؟ سنرى كيف عاملوا هذه النعم.

قال الشيخ: "فذكرهم بالنعم الدينية والدنيوية، الداعي ذلك:

- **لإيمانهم وثباته،** يعني هذه الذكرى بالنعم الدينية والدنيوية أثرها أن يثبت إيمانهم، وأيضًا:
- **وثباتهم على الجهاد،** يعني يثبت إيمانهم وهم يثبتون على الجهاد.
- **وإقدامهم عليه".**

إذًا هذه النعم لو تَذَكروها كما ينبغي ستكون النتيجة أن يثبت الإيمان ويثبت قدمهم في الجهاد ويقدمون على الجهاد متحمسين له، جاعلينه وسيلة للشكر على نعمة الله.

"ولهذا قال: {يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ} أي: المطهرة، والمقصود بها القدس-بيت المقدس وما حوله-التي كتب الله لكم.

كان سؤالنا ونحن نقرأ الآيات ما معنى {كتب الله لكم}؟

الجواب: **{الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ} فأخبرهم خبرًا تطمئن به أنفسهم، إن كانوا مؤمنين مصدقين بخبر الله، وأنه قد كتب الله لهم دخولها، وانتصارهم على عدوهم".**

يعني إن عزموا ودخلوا كتب الله لهم النصر، فماذا فعلوا تجاه هذه النعم العظيمة المتعددة سواء ما ذكرهم به من نعم سبقت أو ما وعدهم الله أنهم لو دخلوا سيكتب لهم النصر؟

"{وَلَا تَرْتَدُّوا} أي: ترجعوا {عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ} قد خسرتم:

- **دنياكم: بما فاتكم من النصر على الأعداء وفتح بلادكم.**
- **وآخرتكم: بما فاتكم من الثواب، وما استحققتم-بمعصيتكم-من العقاب".**

يعني لو تركتم هذا الأمر ستكونون قد خسرتم دنياكم وأخراكم، أما الدنيا فقد خسرتم أن تكونوا الشجعان الذين ينتصروا على البلاد ويفتح لهم البلاد، وأما الآخرة فقد خسرتم ما فاتكم من الثواب على الإقدام، وأيضًا خسرتم بمعصيتكم لأمر نبيكم، فبعد هذا التذكير والإرشاد والتحذير ماذا قال هؤلاء؟

"قالوا قولًا يدل على:

1. **ضعف قلوبهم.**
2. **وخور نفوسهم.**
3. **وعدم اهتمامهم بأمر الله ورسوله".**

انظري إلى هذه الثلاثة: نفوس ضعيفة في الإيمان، قلوبهم ضعيفة الإيمان، ثم أنهم لا يتصفون بالشجاعة ولا بالهمة، إيمان ضعيف وخور في النفوس، والشأن العظيم أنهم لا يهتمون بأمر الله ولا أمر رسوله-صلَّى الله عليه وسلَّم-، فيخاطبهم موسى-صلَّى الله عليه وسلَّم-بهذه الخطابات وهم يردون بهذه الردود التي تدل على **ضعف الإيمان.**

"قالوا: {يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ} شديدي القوة والشجاعة، أي: فهذا من الموانع لنا من دخولها". لماذا لا يريدون أن يدخلوا؟ لأن في القرية في البيت المقدس قومًا ما وصفهم؟ قالوا إنهم جبارين يعني غاية في القوة والشجاعة.

{وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ} قال الشيخ: **"وهذا من:**

- **الجبن.**
- **وقلة اليقين.**

وإلا فلو كان معهم رشدهم، لعلموا أنهم كلهم من بني آدم!"

يعني هذا الجواب دليل على أنهم جبناء من جهة أنفسهم وقليلي اليقين من جهة قلوبهم وإيمانهم، وإلا فلو كان معهم رشدهم، لو كان معهم عقل، لنظروا إلى هذين الأمرين ولعلموا أنهم كلهم من بن آدم؛ يعني بني إسرائيل والقوم الجبارين الذين يقال عنهم في التاريخ إنهم الكنعانيون، الذين كانوا في بيت المقدس في ذلك الزمان كلهم من بني آدم، إذا كانوا كلهم يشتركون أنهم من بني آدم.

قال الشيخ: "وأن القوي من أعانه الله بقوة من عنده"، يعني لا أحد يزيد على أحد إلا أن يمدّ الله أحد الطرفين بقوة؛ لأنهم كلهم من بني آدم الذي وصفهم أنهم ضعفاء، ومن القوي على الحقيقة؟ **قال:**

"وأن القوي من أعانه الله بقوة من عنده، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله".

إذًا هذا الأمر الأول: **قلة اليقين** التي سببت لهم **قلة الرشد**، ما عندهم عقل رشد، نظروا إلى الأسباب المادية وعلموا أنهم أقوياء، فما كان منهم إلا أنهم خافوا، ولو كان عندهم عقل رشد لرأوا أنهم يشتركون معهم

أنهم من بني آدم، وأن القوي من أعطاه الله القوة وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله، الله هو من يمدّهم بالقوة، هذا الأمر الأول لم يرشدوا إليه لم يكن معهم عقل رشد.

الأمر الثاني: "**ولعلموا أنهم سينصرون عليهم؛ إذ وعدهم الله بذلك، وعدًا خاصًا**".

في بداية الآيات أتانا خبر {يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ} فإن كنتم شجعان كنتم أنتم من تُحصّلون، إذا لم تكونوا شجعان سيحصلها غيركم، لكن لا يوجد يقين في قلوبهم **بقوة الله** ولا **بوعد الله**.

"**{قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ} الله تعالى، مشجعين لقومهم، منهضين لهم على قتال عدوهم واحتلال بلادهم. {أنعم الله عليهما}**-بأي شيء أنعم عليهما؟-**بالتوفيق، وفقهم الله أن يقولوا هذا الكلام، وكلمة الحق في هذا الموطن المحتاج لمثل كلامهم**".

يعني أنعم الله عليهم بالتوفيق وفقهم باعتقاد الحق، وأيضًا سددهم أن يقولوا كلمة الحق في هذا الموقف الذي يحتاج فيه لكلمة الحق، وأنعم عليهم أيضًا بالصبر واليقين، هذه أربعة أمور عظام أنعم بها عليهم:

1- التوفيق.
2- وكلمة الحق في الموطن الذي يحتاج إلى الحق فيه.
3- الصبر.
4- اليقين.

وهذه كلها **تخرج عبدًا صالحًا** وهذه كلها **تخرج من الخوف من الله** {قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ الله} يخافون الله، فلأنهم ممن يخاف الله وفقوا، وقالوا كلمة الحق، وصبروا، وكانوا على يقين أن ما يقولونه هو الحق؛ ماذا قالوا لهم؟

"**{ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ} أي: ليس بينكم وبين نصركم عليهم إلا أن تجزموا عليهم، وتدخلوا عليهم الباب**". تجتمعوا وتدخلوا عليهم الباب.

وما أحسن أثر الاجتماع على ما أمر الله ما أحسن الاجتماع على ما يحب الله.

"**فإذا دخلتموه عليهم فإنهم سينهزمون**، وهذا لأن الله وعد بذلك.

ثم أمَرَاهم بعدة هي أقوى العدد، فقالا {وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}" فإذًا دلوهم على السبب وهو: اجتمعوا وادخلوا عليهم الباب، ودلوهم على العبادة على العدة التي **هي أقوى العدد التي تنفع بدون سبب ولا تنفع الأسباب وإن وجدت إذا فقد هذا السبب وهو التوكل.**

"فإن في التوكل على الله-وخصوصا في هذا الموطن-تيسيرًا للأمر ونصرًا على الأعداء، ودل هذا على وجوب التوكل، ودل هذا على أن كل من يكون في هذا الموطن فإنه يؤمَر:

- **بالتوكل.**
- **بالاعتماد على الله.**
- **بأن يراجع يقينه في الله.**

قال: **"وعلى أنه**-أي هذه الآية تدل أيضًا-، **بحسب إيمان العبد يكون توكله"**؛ **لأن الله-عزَّ وجلَّ-قال**: {وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}.

يعني إذا كان معكم إيمان عليكم بالتوكل **إذًا التوكل مقياس الإيمان وعلى أنه بحسب إيمان العبد يكون توكله.**

فماذا كانت النتيجة؟ **قال الشيخ**:

"فلم ينجع فيهم هذا الكلام، ولا نفع فيهم الملام" لم يخرجوا بنتيجة، قالوا هذا الكلام الواضح البيّن، اجتمعوا وادخلوا عليهم الباب، توكلوا إن كنتم مؤمنين، فإن التوكل خير عمل يقوم به من أراد النصر، إن وجد هذا التوكل صنع الله لهذا العبد ما لا يصنع لغيره، كل هذا الكلام لم ينجع معهم!

"فقالوا قول الأذلين: {يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ} فما أشنع هذا الكلام منهم، ومواجهتهم لنبيهم في هذا المقام الحرج الضيق، الذي قد دعت الحاجة والضرورة إلى نصرة نبيهم، وإعزاز أنفسهم. وبهذا وأمثاله يظهر التفاوت بين سائر الأمم، وأمة محمد صلَّى الله عليه وسلَّم-وانظروا إلى فضل الصحابة رضوان الله عليهم المهاجرين والأنصار خاصة في هذا الموقف الأنصار-**حيث قال الصحابة لرسول الله-صلَّى الله عليه وسلَّم-حين شاورهم في القتال يوم «بدر» مع أنه لم يحتم عليهم**-القتال-: **يا رسول الله، لو خضت بنا هذا البحر لخضناه معك، ولو بلغت بنا برك الغماد ما تخلف عنك أحد".**

(برك الغماد) هذا يكون في جنوب الجزيرة، على خط ساحل البحر الأحمر، فكأنهم يقولون: لو خرجت بنا إلى البحر سنخرج ولو نزلت بنا إلى ذاك المكان البعيد سنذهب، يقول الصحابة: **"ولا نقول كما قال قوم**

موسى لموسى: {اذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ} ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، من بين يديك ومن خلفك، وعن يمينك وعن يسارك"!

رضي الله عنهم أجمعين وألحقنا بهم في تلك الدار العظيمة التي يجتمع فيها الأحباء، فإنّا نُشهدك يا رب أننا نحبّ نبينا، ونحب صحبه الكرام، ونعلم مكانتهم التي رفعتهم بين سائر أتباع الأنبياء، فإن **ليس بعد الأنبياء خلق خيرٌ من أصحاب نبينا-صلَّى الله عليه وسلَّم-**رضي الله عنهم أجمعين.

فلما رأى موسى-عليه السلام-عتوهم عليه تحول لمناجاة ربه، **قال الشيخ**: "{قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي} **أي: فلا يدان لنا بقتالهم، ولست بجبار على هؤلاء".**

بمعنى لا أستطيع أن أقودهم قيادة الجبارين وأرغمهم على القيام بالقتال {فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} **أي: احكم بيننا وبينهم، بأن تنزل فيهم من العقوبة ما اقتضته حكمتك، ودلّ ذلك**-يعني ما دام دعا عليهم هذا الدعاء وناجى ربه هذه المناجاة-**على أن قولهم وفعلهم من الكبائر العظيمة الموجبة للفسق".**

فعاقبهم الله عقوبة وأدبهم أدب عظيم "**{قَالَ} الله مجيبًا لدعوة موسى:** {فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ}"

يحرم عليهم ليس تحريمًا شرعيًا إنما تحريمًا كونيًا بمعنى يحرمهم من الدخول أربعين سنة، ماذا يحصل لهم في الأربعين؟ يتيهون في الأرض!

"أي: إن من عقوبتهم أن نحرم عليهم دخول هذه القرية التي كتبها الله لهم، مدة أربعين سنة، وتلك المدة أيضا يتيهون في الأرض، لا يهتدون إلى طريق ولا يبقون مطمئنين، وهذه عقوبة دنيوية، لعل الله تعالى كفر بها عنهم، ودفع عنهم عقوبة أعظم منها".

يعني الذي يظن أن هذه العقوبة التي وقعت عليهم عقوبة من أجل أن يؤدبهم الله ويكفر عنهم سيئاتهم، **ودفع بهذه العقوبة عقوبة أعظم منها وهذا ما نظنه**؛ لأنهم في هذا التيه كان يأتيهم المنّ والسلوى وظلل عليهم بالغمام، فهذا دليل على أن هذه العقوبة **كانت تأديبًا لهم**، من أجل أن يتربوا ويعرفوا منّة الله، فبعدما كانوا مملوكين لفرعون جعلهم ملوكًا لهم منازل لا يدخل غيرهم عليهم إلا بإذنهم، وملكهم خدمًا فالبيت والزوجة والخادم كل هذا دليل على أنهم أصبح لهم منزلة، فكيف بعد هذه النعم يأتي الأمر الذي يزيد صلاح دينكم ودنياكم يكون ردكم ما ذكرتم؟!

{وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ}

- فلق البحر.

- وأهلك العدو.
- وجعلهم آية عظيمة.

ومع ذلك كل هذا الذي ذكروا به لم ينفعهم، ذكروا بالنعم، ذكروا بعطاء الله، ذكروا بالطريق ادخلوا عليهم مجتمعين، ذُكروا بأمر من أهم الأمور وهو التوكل على الله، فما كان منهم إلا هذا الرد الذي يدل على **ضعف الإيمان** و**جبن النفس**، وحكم الله عليهم أن يتيهوا **أربعين سنة** في الأرض! يتحيّرون في الأرض، فلا يستطيعون أن يصلوا إلى مرادهم.

وهذا كما ذكر الشيخ: **"وهذه عقوبة دنيوية، لعل الله تعالى كفر بها عنهم، ودفع عنهم عقوبة أعظم منها"**، نستفيد من هذا **قال الشيخ**: **"وفي هذا دليل على أن العقوبة على الذنب:**

- **قد تكون بزوال نعمة موجودة.**
- **أو دفع نقمة قد انعقد سبب وجودها أو تأخرها إلى وقت آخر".**

يعني من عقوبات الذنب أن يزول عن العبد **نعمة موجودة أو يزول عنه دفع نقمة قد انعقد سبب وجودها أو تأخرها إلى وقت آخر**: وهذا معناه **أن الذنوب تحرم العبد عناية الله به، وحفظه له.**

ولذلك إذا وقع العبد في الذنوب فآثارها السريعة عليه-إن لم يسارع بالتوبة والاستغفار-**أن يقع له حرمان من نعمة موجودة عنده**، أو **حفظٌ من نقمة انعقدت أسباب وجودها**، فتقع عليه أمور كان سابقًا محفوظًا منها.

لماذا يتيهون أربعين عام؟ قال:

"ولعل الحكمة في هذه المدة أن يموت أكثر هؤلاء الذين قالوا هذه المقالة، الصادرة عن قلوب لا صبر فيها ولا ثبات، بل قد ألفت الاستعباد لعدوها، ولم تكن لها همم ترقيها إلى ما فيه ارتقاؤها وعلوها".

يعني ربما السبب **في الأربعين عام** أن يكون هذه الأربعين عام مدة لموت من قال هذه المقالة، ما صفاتهم هؤلاء؟ نفوسهم ألفت **الاستعباد** و**لم تكن لهم همم ترقيهم** في مقابلها سيظهر ناشئة جديدة يقول: **"ولتظهر ناشئة جديدة تتربى عقولهم على طلب قهر الأعداء، وعدم الاستعباد، والذل المانع من السعادة".**

ولذلك **وقت الفتن** ترى الناس في هرج ومرج مخالفين للسنَّة بعيدين عنها لا تجد عندهم تعظيم، فأنت ماذا تفعل؟ تتخطى هؤلاء الموجودين الذين صمّت آذانهم بسبب الفتنة، تتخطاهم إلى ما بعدهم، تتخطاهم لترى الأطفال الصغار الناشئة فتربيهم على **تعظيم الله**، و**توقير النبي**-صلَّى الله عليه وسلَّم-، **وتعظيم القرآن** من أجل أن تتحاشى الفتن التي يعيشها العالم الإسلامي، عليك بتخطي الكبار الذين اعتادوا معارضة الكتاب

والسنَّة، اعتادوا التهجم على ثوابت الأمة، تخطاهم إلى الناشئة، واترك الكبار لا بأس يربيهم الله، ويأتيهم من الصوارف والأحوال ما يساعدهم على صلاح أنفسهم، لكن عينك على الناشئة؛ لأن **في وقت الضجيج الكبار لا يسمعون**، والصغار **لا يسمعون الضجيج فيسمعونك أنت** الذي تدعو إلى الله تعظم الله وتوقر النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-وتعظم القرآن.

وهذه وصية أرجو من الله أن تنفعني وتنفعكم، فإننا نرى في أنحاء العالم الإسلامي من أصم أذنيه ضجيج الفتنة وأعمى عينيه الدماء التي سالت في كل مكان، فلا يريد أن يقول: سمعًا وطاعة لأمر الله وأمر رسوله، فإننا نتعداه إلى الناشئة، ونربيهم **لكي يطيعوا الله ويطيعوا رسوله ولا يعصونه**، ولا تكون صفتهم مثل صفة بني إسرائيل يأمرهم نبيهم يذكرهم فلا يأتمرون ولا يذكّرون نعمة الله عليهم، **قال**:

"ولتظهر ناشئة جديدة تتربى عقولهم على طلب قهر الأعداء، وعدم الاستعباد، والذل المانع من السعادة".

الآن هذه **خاتمة الآية**:

"ولما علم الله تعالى أن عبده موسى في غاية الرحمة على الخلق، خصوصا قومه، وأنه ربما رق لهم، واحتملته الشفقة على الحزن عليهم في هذه العقوبة، أو الدعاء لهم بزوالها، مع أن الله قد حتمها، قال: {فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} أي: لا تأسف عليهم ولا تحزن، فإنهم قد فسقوا، وفسقهم اقتضى وقوع ما نزل بهم لا ظلما منا".

يعني بعدما وقعت عليهم عقوبة-التيه-ربما وقع في قلب موسى-عليه السلام-رقة لهم وشفقة، فيدعوا لهم بزوالها-بزوال هذه العقوبة-مع أن الله قد حتمها وجعلها محتّمة على بني إسرائيل فقال لنبيه موسى: {فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ}.

"أي: لا تأسف عليهم ولا تحزن، فإنهم قد فسقوا، وفسقهم اقتضى وقوع ما نزل بهم لا ظلمًا منا".

وهذا أمر غاية في الأهمية فإن العقوبات التي تنزل على العباد لا تكون إلا بسبب:

- ما جروه لأنفسهم من العناد.
- وما جروه لأنفسهم من معصية أمر الله.
- والاستهانة بأمر نبيه.

فإن بني إسرائيل ومن هو على شاكلتهم صفته أنه فاسق والفاسق أهم أوصافه: أنه لا يعظم أمر الله ولا أمر رسوله، إن **الفاسق: هو الذي يخالف الأمر الذي أمر الله أو أمر رسوله صغيرًا كان أو كبيرًا من منطلق الاستهانة**، من منطلق عدم تعظيم الأمر، وإلا كل ما كان على بني إسرائيل أن يمتثلوا الأمر ويسيروا جماعة ويدخلوا الباب متوكلين على الله ووعدهم بالنصر فكان سيحصل لهم ما وعدهم الله لكن الفسق أي:

الاستهانة بأمر الله وارتكاب المحظورات وعدم امتثال الأوامر من منطلق عدم العناية، من منطلق الاستهانة، هذا أعظم الأمور خطرًا، فإن أهل التقوى يتقون، يعظمون أمر الله ويتقونه فيغفلون أو يسقطون تزل قدمهم بشيء يجرهم، تغلبهم شهوتهم فيسقطوا، يغضبون فيخطؤوا، لكنك لا تجدهم يستهينون بأمر الله، **لا تجد أهل الإيمان والتقوى يستهينون**، فمن كان مستهينًا بأمر الله **لا يعتني بأمره أو نهيه**، كان فاسقًا فيه شبه من بني إسرائيل، **ومَن أخطأ وقع في الذنب لكن مصدر ذنبه هو عدم تيقظه**، غفل، غضب، غلبته شهوته، هذا كله يقع، والفارق كما اتفقنا تام الوضوح، لا تتجرأ على محارم الله، لا تستهِن بأمر الله، لا تقول عن أمر النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-: إن هذا أمر صغير، لا تقول هذا على شيء ليس بواجب، لا تعامل أوامر الله بهذه الصورة ولا أوامر رسوله، بل قل: سمعًا وطاعة، قل: سمعنا وأطعنا، **اسمع وأطِع واطلب الغفران** سمعنا واطعنا، **واطلب الغفران وأنت شديد الحاجة إلى هذا الغفران وهذا الواجب علينا أن نربيه في أجيالنا جيلًا بعد جيل**.

وكما استفدنا من هذه الآيات استفادة عظيمة وهي الغلبة على قوم شقاوة من نوع معين ضعف توقير النبي أو ضعف تعظيم لأمر الله فاعتنِ بالناشئة، **إذا اعتنيت بالناشئة خرج جيلًا يعظم الله ويوقر النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-ويعظم الكتاب ويعظم أوامر الله**، وهذا من **أعظم المقاصد**.

أسأل الله-عزَّ وجلَّ-أن يحقّق لي ولكم مقاصد الخير والبركة، وأن يصرف عنا الشر، وأن يصرف عنا آثار ذنوبنا.

لابد أن نعتني في هذه الأيام الفاضلة بكثرة الاستغفار طلبًا منه-سبحانه وتعالى-أن ينزل علينا البركات **فإن البركات معقودة بالغفران**، فلنقل: "سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا" **فطلب المغفرة يأتي بعد السمع والطاعة**، سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير.

اللقاء السابع

تفسير الآيات 74 – 83 من سورة الأنعام

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذا هو لقاؤنا السابع من سلسلة لقاءات هذا الشهر المبارك رمضان لعام 1434هـ-، أسأل الله-عزَّ وجلَّ-بمنّه وكرمه أن يجعله لقاءً مباركًا، وأن يجعلنا ممن أعانه ربه على الصيام والقيام وتقبّله منه ونفعه به يوم يفرح الناس بأعمالهم.

ذاك اليوم العظيم الذي سنكون فيه شهداء مع نبينا-صلَّى الله عليه وسلَّم-على الأنبياء أنهم بلغوا الرسالة وأدوا الأمانة، **فكان هذا الركن-ركن الإيمان بالرسل-من أعظم الأركان التي نعتني بها في أركان الإيمان**، كوننا سنقف شهداء تربطنا بالأنبياء أوثق الروابط، تربطنا بالأنبياء رابطة الإيمان، فكان من الواجب أن نعتني بهذه الرابطة غاية الاعتناء، ونجتهد في فهم مواقفهم وأحوالهم كما ورد في كتاب الله وفي سنَّة النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-.

فنبدأ في هذه السورة سورة الأنعام سورة التوحيد، نبدأ بالنظر لهذه الآيات:

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ۖ إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (74) وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (78) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79) وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ۚ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ ۚ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا ۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (80) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ۚ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ۖ إِن

كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (82) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (83)}[1]

لكن قبل أن نبدأ في الآيات المقصودة نريد أن نبدأ بالآية التي تسبق وهي قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ الْحَقُّ ۚ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ ۚ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (73)}.

وهذه الكلمة العظيمة التي فيها وصف لخلق السماوات والأرض بأنه بالحق، سيظهر بيانه في الآيات الآتية، يعني بمعنى أنّ الله–عزَّ وجلَّ–خلق السماوات وما فيها والأرض وما فيها بالحقّ، فما هو الحقّ الذي سنعرفه؟ سيتبين من خلال محاجّة إبراهيم–عليه السلام–لقومه أن الله خلق السماوات وما فيها والأرض وما فيها بالحق؛ أي لإظهار هذا الحقّ، والحقّ سيتبيّن لنا إن شاء الله من خلال موقف إبراهيم–عليه السلام–وإظهاره له.

{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ۖ إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (74)}إذًا ابتدأت الآيات ببيان عقيدة إبراهيم–عليه السلام–في الأصنام وأنه يرى أن من عبدها فهو في ضلال مبين، يقول الله–عزَّ وجلَّ–: {وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75)} وهذا تقرير آخر يبين أن إبراهيم–عليه السلام–صاحب عقيدة صحيحة لأنه استهجن ورفض عبادة الأصنام، ورأى أن الحال التي كان عليها أبوه وقومه أنها حال الضلال، والله يقول ويخبر أنه أرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وأنه كان من الموقنين، ولم يكن شاكًّا عندما ناقش قومه عند رؤيته للكواكب إنما سيتبيَّن لنا أن هذا نوع من أنواع المحاجة وليس شكًّا أبدًا.

{فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي} ماذا حصل للكوكب؟ {فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ}.

{فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي} ماذا حصل؟ {فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ} فكيف وهو يناشد ربه ويناجيه ويطلبه؟

(1) [سورة الأنعام: 74-83]

{فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ} أي هذا الذي يمكن أن تتكلموا عنه في الكواكب التي تعبدونها إما كوكبًا بازغًا ذا نور أو القمر أو الشمس وكلها أفلت، إذًا أنا بريء مما تشركون {إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} هل قَبِل قومه؟ لا.

{وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ} حاجوه، سنفهم ما معنى محاجتُهم له وماذا ردّ عليهم وكيف أخبرهم أن الله هداه وأنه لا يخاف ما يشركون به {إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا ۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ} وهنا تأتي مسألة الخوف:

{وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ۚ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} يجيب الله من هو الفريق الأحق بالأمن:

{الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ} ويقول الله في نهاية هذا السياق: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ} إذًا هذه حجة، هذا من باب التنزّل مع الخصم ومحاجته {نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} إذًا نفهم أن هذا نوع من أنواع المحاجة وفهمنا على الإجمال هذه المحاجة.

نقرأ الآن كلام الشيخ السعدي سيتبيّن لنا من خلاله مجموعة من الفوائد وتفصيل الآيات:

قال السعدي رحمه الله:

"**وإذ قال لأبيه** {آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً}" إلى آخر القصة يقول تعالى: واذكر قصة إبراهيم–عليه الصلاة والسلام–مثنيًا عليه ومعظّمًا في حال دعوته إلى التوحيد، ونهيه عن الشرك.

إذًا عندما تذكر هذه القصة **ليكن في قلبك الثناء على إبراهيم–عليه السلام–وليكن في قلبك تعظيمه**، ولتروا كيف كان حاله في الدعوة إلى التوحيد ونهيه عن الشرك؟

"**إذ قال لأبيه** –وهو في حال دعوته للتوحيد ونهيه عن الشرك– **{آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً} يعني: لا تنفع ولا تضر وليس لها من الأمر شيء**،–وأنت تتخذها آلهة؟–**{إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}** لماذا حكم عليهم بالضلال؟ **حين عبدتم من لا يستحق من العبادة شيئًا، وتركتم عبادة خالقكم، ورازقكم، ومدبركم.{وَكَذَلِكَ} حين وفقناه للتوحيد والدعوة إليه**"، إذًا إبراهيم–عليه السلام–جمع بين أمرين:

- بين أن يكون هو موحد.
- وأن يكون داعيًا للتوحيد.

"**{نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} أي: ليرى ببصيرته، ما اشتملت عليه من الأدلة القاطعة، والبراهين الساطعة**". يعني السموات والأرض–كما قرأنا في الآية السابقة–خلقت بالحق، يعني خلقت وفيها من الأدلة الدالة على الحق ما يكفي من كان صادقًا يريد الحق، وإبراهيم–عليه السلام–ممن رأى ببصيرته ما اشتملت عليه (السماوات والأرض) من الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة.

"**{وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ} فإنه بحسب قيام الأدلة، يحصل له الإيقان والعلم التام بجميع المطالب**".

بمعنى: أن اليقين الذي هو درجة عالية من درجات الإيمان يحصل بأي شيء؟ بحسب تكاثر الأدلة عند صاحبها

قال:

"**فإنه بحسب قيام الأدلة يحصل له الإيقان والعلم التام بجميع المطالب**".

هذه الجملة مهم جدًّا أن نفهمها، فمن عطايا الله للعبد الصادق المقبل على ربه أن يريه آيات، يريه براهين، سواءً يراها في السماوات والأرض، أو يراها في التشريع، أو يراها في الأحداث والأقدار التي تدور حوله، المهم أنه يرى في ملكوت السماوات والأرض، إما في خلقها أو في تدبيرها، أو في الأقدار التي تجري حولها، أو في الشرع الذي يضبطها ويصلحها، يرى أدلة قاطعة وبراهين ساطعة على الحق، وأن الله هو الحق وأن له كمال الصفات، فيتحقق له من خلال النظر–ببصيرة–في كل شيء اليقين، يتحقق له اليقين.

لو نريد أن نربط الآية بما تعلمنا في آية سورة النساء: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ}.

أي: اطلبوا لأنفسكم المزيد من الإيمان، كيف يطلب الإنسان لنفسه المزيد من الإيمان؟ (المزيد من الإيمان كيف يكون؟)

بالنظر وبالتفكُّر، كلما ازددت تفكرًا، كنت أكثر علمًا، وكلما كنت أكثر علمًا، زدت في يقينك.

إذًا هذا يقتضي أمورًا ثلاثة:

1. أصحح إيماني.
2. وأزيد إيماني بالعلوم.
3. وأستمر عليها.

فهنا أحد وسائل زيادة الإيمان، بأي شيء؟ بالعلم، فيصبح معك بصيرة، قال تعالى: {نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ}.

إذًا هذه هي الوسيلة التي يصبح بها الإنسان موقنًا، أن يفتح الله بصيرته فيرى في ملكوت السماوات والأرض، المخلوقات والأقدار والشرع الذي أتى وضبط أهل السماوات وأهل الأرض.

قال:

"فإنه بحسب قيام الأدلة يحصل له الإيمان والعلم التام بجميع المطالب".

كلما قامت الأدلة أكثر، حصل اليقين أكثر، وحصل العلم التام بجميع المطلوب من الإنسان.

نرى الموقف مع إبراهيم–عليه السلام–الآن من جهة الأحداث التي فيها محاجة لقومه، يعني أن الآية الأولى والثانية تقرير لعقيدة إبراهيم–عليه السلام–، براءته من الشرك وتضليله للشرك ويقينه بالتوحيد، والوسيلة لذلك وهو أن بصيرته كانت ترى آثار كمال صفات الله في كل شيء.

"**{فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ} أي: أظلم** الليل **{رَأَى كَوْكَبًا} لعله من الكواكب المضيئة؛ لأن تخصيصه بالذكر، يدل على زيادته عن غيره؛ ولهذا–والله أعلم–قال من قال: إنه الزهرة**"–على أن الزهرة كوكب مضيء يضيء عن غيره–.

"**قَالَ {هَذَا رَبِّي} أي على وجه التنزل مع الخصم**"، يعني: لا الاعتقاد ولا الشك، وإنما يتنزل مع من يخاصم، والتنزل مع الخصم هذه كلمة معروفة يُقصد بها أنك إذا أردت أن تقيم الحجة على أحد فلك طريقان:

- إما أن تظهر الحق الذي معك وتبينه وتفنده، فتقول: الله هو الإله لأن له من الصفات كذا ولأن له من الأفعال كذا وكذا وتثني على الله بما هو أهل له.

أو

- تأتي تقول: سنفترض أن إلهكم هو الحق، تعال ننظر إلى صفاته، عندما تقول: "أفترض أن إلهك هو الحق"، كأنك تقول: "سأسلم لك أن إلهك هو الحق"، سأسلم لك أن بوذا هو الحق، هل بوذا مع الناس كلهم؟ هل له صفات كذا وكذا؟ هل يفعل كذا؟ هل عندما تحتاجونه يأتيكم؟.. إلخ.

إذًا الحق يظهر بطريقتين:

- إما بإظهار الحق.
- وإما بإبطال الباطل.

فالنوع الثاني الذي هو إبطال الباطل يبدأ بالتنزل مع الخصم، فيبدأ بقول: "سأُسلِّم لك أن هذا هو الإله، فانظر إلى صفاته، هل يستطيع أن يفعل كذا وكذا؟".

هم قوم يعبدون الكواكب، فهو تنزل معهم، قال: تقولون: الكواكب هي التي تستحق أن تكون إلهًا، ومثّلتم لها أصنامًا في الأرض، إذًا هذا الكوكب المضيء سأعتبره هو ربي، {فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي} إذًا هذا اسمه التنزل مع الخصم، فلم يشكّ إبراهيم–عليه السلام–ولم يفتّش، هو

كان متيقِّنًا مَن هو ربه، لكن القوم مصرين أن أصنامهم هذه تمثل آلهتهم التي هي عبارة عن الكواكب في السماء، فقالوا: الكواكب في السماء تُعبد لأنها تفعل!

قال: هذا الكوكب المضيء ربي، "**{قَالَ هَذَا رَبِّي} أي: على وجه التنزل مع الخصم أي: هذا ربي، فهلم ننظر، هل يستحق الربوبية؟ وهل يقوم لنا دليل على ذلك؟ فإنه لا ينبغي لعاقل أن يتخذ إلهه هواه، بغير حجة ولا برهان. {فَلَمَّا أَفَلَ} أي غاب ذلك الكوكب، قال: {قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ} أي: الذي يغيب ويختفي عمن عبده، فإن المعبود لا بد أن يكون قائمًا بمصالح من عبده، ومدبّرًا له في جميع شؤونه، فأما الذي يمضي وقت كثير وهو غائب، فمن أين يستحقّ العبادة؟! وهل اتخاذه إلهًا إلا من أسفه السفه، وأبطل الباطل؟**"! لابد أن يكون الإله قريب مجيب...، لا يغيب إذا سألته أتتك منه العطية، ولا زال التنزّل قائمًا.

إذًا انتفى أن يكون ذاك الكوكب عظيم اللمعان هو الإله **{فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي } أي طالعا، ورأى زيادته على نور الكواكب ومخالفته لها**، فهو مختلف قريب وإضاءته أقوى، فقال هذا ربي، **قال الشيخ: تنزلا**.

{فَلَمَّا أَفَلَ} وكانت له نفس الصفة، قال **{لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ}** فأظهر لهم الطريق، **فافتقر غاية الافتقار إلى هداية ربه، وعلم أنه إن لم يهده الله فلا هادي له، وإن لم يعنه على طاعته، فلا معين له.**

فعلَّمَهم، أنت الآن إذا احترت ووجدت أن الطرق التي حولك لم يظهر فيها الحق ماذا تفعل؟ تبذل جهدك أن تستهدي الله، عبادة الاستهداء عبادة مُهملة، قليل من يعتني بها، وتجد الناس حتى لما يختلفون في مسائل غاية في الخطورة يظنون أن بحثهم العلمي أو مناقشاتهم العلمية هي السبب الوحيد لوصولهم إلى الحق، والحقيقة أن الاستهداء وهو الافتقار إلى هداية الله والعلم اليقيني أن من لم يهده الله فلا هادي له، وأن من لم يعنه فلا معين له، هذه توصل الإنسان إلى الحق، تيسر عليه الدرب، تكون سببًا لإنارة بصيرته، ومَن هيأ نفسه لهذه العبادة–عبادة الاستهداء–وأظهر فقره، وأصبح له من الدربة عليها ستجده يستهدي في كل شأنه، وتجده قد امتثل أمر النبي–صلَّى الله عليه وسلَّم–لعلي–رضي الله عنه–لما علمه

هذه الكلمات العظيمة: "اللهم اهدني وسددني"، فالنبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-علَّم علي هذا الدعاء لتكون منه عبادة الاستهداء، فليس كل من عرف الحق هدي به.

على كل حال، في هذه المناظرة بيّن لهم أن من يأفل ويغيب لا يصلح أن يكون إلهًا، وأن شأن الإنسان أن يفتقر إلى ربه من أجل أن يهديه.

قال:

"**{فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ}** أي أكبر **من الكواكب ومن القمر، {فَلَمَّا أَفَلَتْ} تقرر حينئذ الهدى واضمحل الردى"**، فماذا يمكن أن يكون غير هذه الكواكب إله؟ بدأهم من الأقل إلى الأعلى، من النجم اللامع البعيد، إلى القمر القريب إلى الشمس الكبيرة، لما أفلت، اشتركت كلها في أنها تأفل وتغيب، وفي أنها تكون موجودة ثم تذهب وهناك من يصرفها، ف-{قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ} إذًا هذا الذي ادعيتم بأنه إله إنما هو ليس بالإله المستحق، لماذا؟ لأن هؤلاء الذين تجعلونهم شركاء لله وتعبدونهم من الأصنام والأجرام شيء يتحرك يظهر ويختفي، إذًا هناك من يدبّرها وليست هي التي تُدبِّر، فاستدل على ذلك بأفولها، أنها آفلة، تأفل وتغيب. فإن هذا الأفول-أي يطلع ويغيب-هو تغير من حال إلى حال، وهو دليل على أن هناك من يغير حاله.

قال:

" **{قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ} حيث قام البرهان الصادق الواضح، على بطلانه.**

{إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَاوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ} أي وجهت وجهي لله **وحده مقبلًا عليه ومعرضًا عمن سواه**، إذًا هذا هو التوحيد: الإقبال على الله والإعراض عمن سواه **{وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ} فتبرأ من الشرك، وأذعن بالتوحيد، وأقام على ذلك البرهان".**

ما هو البرهان؟ أن هذه التي تأفل وتظهر إنما هناك من يدبرها ولا يمكن أن تكون هي المدبرة، فهو اتجه بقلبه لمن يدبر هذه الكواكب وليست هي الكواكب المدبرة.

قال الشيخ:

"وهذا الذي ذكرنا في تفسير هذه الآيات هو الصواب، وهو أن المقام مقام مناظر من إبراهيم لقومه، وبيان بطلان إلهية هذه الأجرام العلوية وغيرها، وأما من قال إنه مقام نظر في حال طفولته فليس عليه دليل".

وهذه بعض الفرق التي خالفت أهل السنة قالت: إن هذه الآيات دليل على أن أول واجب على العبيد هو الشك والنظر، وهو ما تدعو إليه الفلسفات الحديثة والأفكار الليبرالية إلى (أنْ لا تسلم للدين بل شك في كل شيء في الدين ثم تيقن)، وإنه والله هذا من أفسد الفساد، فإن الرجل يشك ولا يعود لليقين، كيف تشك في الله؟!

أفي الله شك وفِطر الخلق كلهم تدل على أنه الخالق؟ فذلك من أعجب العجب؛ ولذلك كما قال الله–عزَّ وجلَّ–في سورة إبراهيم بعد أن أخبرنا عن نبأ الذين من قبل النبي–صلَّى الله عليه وسلَّم–قوم نوح وعاد وقوم ثمود قال: {وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللّهُ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّواْ أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُواْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ} { قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}[1] والفطر كلها تشهد بذلك، كل الفطر مجبولة على اعتقاد أن لهذا الكون إلهًا عظيمًا خلقه وهو الذي يدبّره، فليس في الله شك، ولا يصح أن نقول إن هذه الآيات تدل على الشك، إنما هذا في مقام المحاجة، والآية الأخيرة في السياق تظهر هذا جيدا.

يعني الآيتان الأولتان تظهران عقيدته، والآية الأخيرة أيضا تظهر أن هذا إنما في مقام المحاجة.

قال:

"{وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ} قال لهم {أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ} أي: أي فائدة لمحاجة من لم يتبين له الهدى؟ أي أنتم قوم معرضون لا تريدون الحق، **فأما من هداه الله ووصل إلى أعلى درجات اليقين، فإنه هو بنفسه يدعو الناس لما هو عليه،** أي: لا تحاجوني وأنتم لا تعرفون الحق فتتكلموا بهواكم، ويقول لهم: **{وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ}** فالظاهر أنهم يهددونه، ولا زال هذا التهديد إلى اليوم، فإنك تسمع من

(1) [سورة إبراهيم: 9-10]

المشركين الذين أشركوا القبور وأصحابها مع الله في النفع والضر، تسمعهم يقولون: "لا تتكلم عن فلان يضرك، لا تتكلم عن فلان يؤذيك"، فهذا المفهوم الخرافي–مفهوم الخوف من أصحاب القبور والخوف من المعبودات من دون الله–كثيرا ما يُبتلى الإنسان عليه ببلايا ليختبر الله يقين الإنسان.

مما يُحكى في بلد من البلدان أن قبرًا كان في وسط طريق يريدون أن يشقوه ويعمرون، في وسط الطريق هناك ضريح لأحد الموتى الذي يعتبرونه وليًّا، فأهل المنطقة كانوا في حال خوف من أن يهدموا الضريح فيؤذوا، فخافوا وامتنعوا من هدمه، ومنعوا من كلفته تلك الدولة بشق الطريق أن يستخدم آلاته للحفر ولتمهيد الطريق، لما امتنعوا أتى كبير المهندسين المسؤول عن هذا العمل للموقع وأراد أن يبين لهم أنه لا شيء في ذلك وبنفسه سيشغل الآلات وسينبش الضريح ويكسره ويخرج ما فيه ويكمل عمله، فما أن نزل هذا المهندس من سيارته إلا وقع أرضًا وانكسرت قدمه! فجاء البلاء، وحصل عند الناس الذين في أصل قلوبهم عدم وجود اليقين، بل في أصل قلوبهم الشك في قدرة الله واليقين في قدرة الولي، فانضم إليهم هذا المهندس وأتاه بعد أيام من أجل تحقيق مراده، ووقف على ضريحه ووعده بأنه سينقله إلى مكان بارز، يبني له ضريحا في مكان بارز على أن يسمح له بنقل ضريحه من هنا وشق الطريق!!.

فالله المستعان، الله المستعان على البلايا التي يُختبر بها الإيمان، إن العبد لا يثبت على الإيمان حتى يبتلى بلايا عظيمة، فاللهم ثبتنا على دينك واجعلنا على اليقين.

ومن أعظم البلايا تخويف الناس بعضهم لبعض بغير الله.

قال:

"**{وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ} فإنها لن تضرني ولن تمنع عني النفع**، واسمع هذه الآية جيدا **{إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا}** نعم يُصاب الإنسان بأشياء يشاؤها الله اختبارا وامتحانا وليسوا هم الذين يشاؤونها، يعني وقت مشيئة ربي بأن يلحقني شيء من الضرر فالأمر إليه وليس للمعبودات الباطلة التي لا تضر ولا تنفع، فإذًا حصول ضرر من المعبودات هذا باطل، وإثبات أن النفع والضر من الله هذا هو الحق، ويحصل على حسب مشيئة الله.

{وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ} فتعلمون أنه وحده المعبود المستحق للعبودية".

فهو الذي وسع كل شيء علمًا وأحاط بكل شيء-سبحانه وتعالى-، فإذا شاء الخير كان حسب مشيئته، وإذا شاء خلاف ذلك كان على حسب مشيئته، ومشيئته كلها علم وحكمة.

{أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ} أي تعتبرون أن هذه الأصنام جامدة، أو الموتى بالية لا ينفعون ولا يضرون.

إذًا لابد أن نتنبه جيدا: **{لَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ} {إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا}** فإذا شاء ربي شيئا وقع علي، وربما وقع في الزمن الذي تظنون فيه أن آلهتكم هي التي ضرتني، فنسأل الله أن يثبتنا ولا يفتنا، ويبقى يقيننا أنه لا ينفع ولا يضر إلا الله.

قال:

"**{وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ} وحالها حال العجز وعدم النفع {وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا} إلا بمجرد اتباع الهوى**". ليس لكم دليل على ما تفعلون إلا أنه هواكم، والهوى أمر خطير إذا دخل في قلب العبد أصبح ينتصر لنفسه، ينتصر للحال الذي كان عليه آباؤه، ينتصر لقول قاله ولو كان في حال ضيق من المناظرة، ينتصر لنفسه لما تهواه نفسه بمجرد أنه هواه.

"**{فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} قال الله تعالى فاصلا بين الفريقين:** من أحق بالأمن؟ لا تخيفوني، من أحق بالأمن؟

{الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ} وَلَمْ يَلْبِسُوا: أي يخلطوا {إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ} من المخاوف والعذاب والشقاء، ولهم الهداية إلى الصراط المستقيم فإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بظلم مطلقًا لا بشرك ولا بمعاصٍ وماتوا وهم تائبين **حصل لهم الأمن التام والهداية التامة**"، أين سيحصل لهم الأمن التام؟ يوم القيامة، وأين تحصل لهم الهداية التامة؟ أيضًا يوم القيامة، يهتدون إلى أي شيء؟ يهتدون إلى منازلهم في الجنة، نسأل الله من فضله.

وهل هذا معناه أنه لن يحصل لهم الهداية التامة والأمن التام في الدنيا؟ الجواب: يحصل لهم الأمن التام والهداية التامة في الدنيا، فإنهم آمنين في نفوسهم من أخلاط الأفكار، لهم سندهم وصمدهم الذي كلما خافوا لجؤوا إليه، إن هؤلاء المؤمنون يقع عليهم من الخوف والضيق، يقع عليهم من الاكتئاب والحزن ما يقع مثلهم مثل الخلق، تأتي عليهم من صوارف الأحداث ما تأتي، لكن العجيب-وشأن المؤمن كله

عجب–أنهم أول ما يقعون في الخوف تفزع نفوسهم إلى ربهم الصمد، فتجدهم ينادون ويناجون، تجدهم يعرفون إلى أين يتجهون، إنهم لا يتوهون، لا يتوهون! وهذا أمر عجيب. قال تعالى:

{فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}[1] خائفًا، الخوف ليس محرم ولا ممنوع، يعني ليس محرمًا قدرًا على المؤمنين، لا يمكن أن تتصور أنهم لا يخافون، إنهم يخافون، ولكن انظر ماذا يفعلون؟ { قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}.

لما توجه تلقاء مدين قال: {عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ}[2] لما ورد ماء مدين وسقى لهما تولى إلى الظل { فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٍ}[3] فهذا حال المؤمنين لهم الأمن التام والهداية التامة، طبعا تمامها عندما يلقون ربهم.

هؤلاء الذين لم يشركوا ولم يقعوا بمعاصٍ، بمعنى أنهم ليسوا من أولئك القوم المصرين أصحاب الكبائر المدمنين، إنما يقع منهم الخطأ ويسارعون إلى التوبة والاستغفار، أسأل الله بمنه وكرمه أن يقبل توباتنا ويغسل حوباتنا جميعًا.

قال:

"وإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بالشرك وحده ولكنهم يعملون السيئات حصل لهم أصل الهداية وأصل الأمن فإنهم يأمنون من الخلود في النار ويحصل لهم الهداية إلى الطريق المستقيم–وإن لم يحصل لهم كمالها–. ومفهوم الآية الكريمة، أن الذين لم يحصل لهم الأمران، لم يحصل لهم الهداية ولا أمن بل حظهم الضلال والشقاء. يعني الذين لم يؤمنوا أو آمنوا وألبسوا إيمانهم بظلم–والظلم المقصود به الشرك – فأولئك لم يحصل لهم لا هداية ولا أمن بل حظهم الضلالة والشقاء.

ولما حكم لإبراهيم–عليه السلام–، بما بين به من البراهين القاطعة قال: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ} أي: علا بها عليهم، وفلجهم بها، يعني أظهر عليهم الحق وبين لهم أن ما يعبدون

(1) [سورة القصص: 21]
(2) [سورة القصص: 22]
(3) [سورة القصص: 24]

من كواكب لا تصلح أن تعبد فأيهما يختار الإله وكيف يكون هذا الإله يتصرف ويقلب ويأفل ويغيب؟ لابد له من مصرف!

{نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ} كما رفعنا درجات إبراهيم عليه السلام في الدنيا والآخرة" إذًا نحن نعتقد أن إبراهيم–عليه السلام–رفعه الله درجات في الدنيا والآخرة، ما السبب؟

قال:

"فإن العلم يرفع الله به صاحبه فوق العباد درجات. خصوصا العالم العامل المعلم" يعني هذه الثلاثة الصفات سبب لرفعة الدرجات، أن يكون عالما بنفسه، وعاملا لما يعلم، ومعلما لما عمل به وتعلمه.

"فإنه يجعله الله إماما للناس، بحسب حاله"، يعني بحسب توفر الثلاث الشروط فيه سيصبح إمامًا مع زيادة علمه وعمله بعلمه وتعليمه للعلم يصبح إمامًا.

"ترمق أفعاله، وتقتفى آثاره، ويستضاء بنوره" المعنى: أن نظرك لإبراهيم–عليه السلام–سيجمع الآن أمرين: اجمع أولا اعتقادك في إبراهيم–عليه السلام–ومكانته عند الله، مما يجعلنا نحبه ونتقرب إلى الله بحبه، فإنه من أنبياء الله، خليل الله، فنحب نبينا–صلَّى الله عليه وسلَّم–، ونحب إبراهيم–عليه السلام–حبًّا عظيمًا، ونجعله إمامًا لنا، ومن جعله إماما لنا أن ننظر حاله ونقول: كيف أصبح إبراهيم–عليه السلام–إمامًا؟ كيف رفع الله–عزَّ وجلَّ–درجاته؟

قال الشيخ:

"خصوصا العالم العامل المعلم"، إذًا انظر إلى حال إبراهيم وانتفع أنت، تنتفع بأي شيء؟ تصبح عالمًا، وتتعلم، فتعمل بما علمت يزيدك الله علمًا، تُعلم ما علمت يرفعك الله ويجعلك إمامًا للناس، طبعًا كلٌ بحسب حاله، في زمانه، في قريته، في أسرته، الإمامة هذه تختلف على حب أحوال الناس.

قال:

"ترمق أفعاله" ماذا يعني يصبح إماما؟ تُرمق أفعاله، الناس ينظرون إليه من حوله المحيطين به ينظرون إليه، ممكن أن تنظر إليه عائلته، ممكن أن تنظر له قريته، ممكن أن تنظر إليه مدرسته، **"تقتفى آثاره،**

ويستضاء بنوره، ويمشي بعلمه في ظلمة ديجوره. قال تعالى: {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ} لا تنسوا العالم العامل المعلم.

ثم يقول تعالى: **{إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ}** حكيم **فلا يضع العلم والحكمة إلا في المحل اللائق بها، وهو أعلم بذلك المحل وبما ينبغي له".** فإذا أعطى الله–عزَّ وجلَّ–العلم والحكمة لأحد ورفعه، فأنت تعلم أن الله لا يرفع في دينه إلا من كان له شأن عند ربه، والله حكيم عليم.

فتجعل هؤلاء الذين رفعهم الله في دينه تجعلهم أمام عينيك قدوة لك، لا تهملهم ولا تقل: "العالم الإسلامي يفتقد القدوات" إننا أكثر أمة تملك قدوات، ليس في البشرية في تاريخها أحد يملك قدوات مثلنا، فأما إذا نظرت للأنبياء فهم جميعا قدوتنا، وأما إذا نظرت إلى الصحابة فأنت تجد أن أصحاب محمد–صلَّى الله عليه وسلَّم–خير الناس بعد الأنبياء، فكيف تفتقد القدوات؟! لكن قل: "لقد أهملنا القدوات" لقد قصرنا في حق أنفسنا وحق أبنائنا في بناء عقيدة عظيمة وهي عقيدة الولاء وأصبحنا نعقد ولاءاتنا على الخلق حولنا.

عَظِّم الله حقّ التعظيم، واجعل النبي–صلَّى الله عليه وسلَّم–أسوتك، واجعل الأنبياء الذين كرمهم الله وجعل لهم منزلة ومكانة أمام عينيك أفعالهم وأحوالهم التي وصفت لك، إنك تقرأ أخبار هؤلاء الأنبياء ليحتلوا في قلبك مكانة؛ لأنك يقينا ستجتمع بهم. نسأل الله–عزَّ وجلَّ–أن يكون اجتماعا مشرفا طيبا مباركا، وأن يكون أحسن لقاء، وأن يكون لقاءنا بك يا رب خير لقاء ويكون خير أيامنا يوم أن نلقاك.

نحن على يقين أننا سنرى هؤلاء الأنبياء وعلى رأسهم نبينا محمد–صلَّى الله عليه وسلَّم–، وسنكون شهودا على أقوامهم، سيسأل الله–عزَّ وجلَّ–الأقوام ينكرون أن الأنبياء بلغوا الرسالة، فيقول الله للأنبياء: –نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام جميعا–: هل لكم شهداء؟ فيقولون: نعم محمد وقومه! فنكون ممن شهد لهؤلاء الأنبياء، فكان الواجب أن تكون عقيدتنا في الأنبياء غاية في البيان.

فاعقدوا في قلوبكم حبهم وتتبع آثارهم ومعرفة أحوالهم، ولا تقرأ قصص الأنبياء إلا من كتاب الله، اقرأ وافهم كيف أتت أخبارهم، إن الله لما أخبرنا في سورة الأنعام {وهو الذي خلق السماوات والأرض بالحق}، أخبرنا عن قصة إبراهيم–عليه السلام–مع ما في السماوات والأرض وكيف أنه استدل بما في

السماوات والأرض على الحق، وأن هذا الذي يتصرف في السماوات الأرض تراه يتصرف ينتقل يصرف لابد له من مصرف، فالله–عزَّ وجلَّ–هو المدبر المصرف–سبحانه وتعالى–عما يشركون.

أسأل الله بمنه وكرمه أن نكون ممن والى أنبياءه ورسله وأحبهم وجعلهم قدوات وسار في طريقهم واعتنى بحالهم، وعلى رأسهم نبينا–صلَّى الله عليه وسلَّم–، وإبراهيم–عليه السلام–، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

الفهرس

اللقاء الأول 3

تفسير الآيات 124، 125 من سورة البقرة 3

اللقاء الثاني 17

تفسير الآيات 163، 164 من سورة البقرة 17

اللقاء الثالث 36

تفسير الآيات 257- 260 من سورة البقرة 36

اللقاء الرابع 50

تفسير الآيات 102- 107 من سورة آل عمران 50

اللقاء الخامس 67

تفسير آية 136 من سورة النساء 67

اللقاء السادس 81

تفسير الآيات 20-26 من سورة المائدة 81

اللقاء السابع 93

تفسير الآيات 74 – 83 من سورة الأنعام 93

الفهرس 109